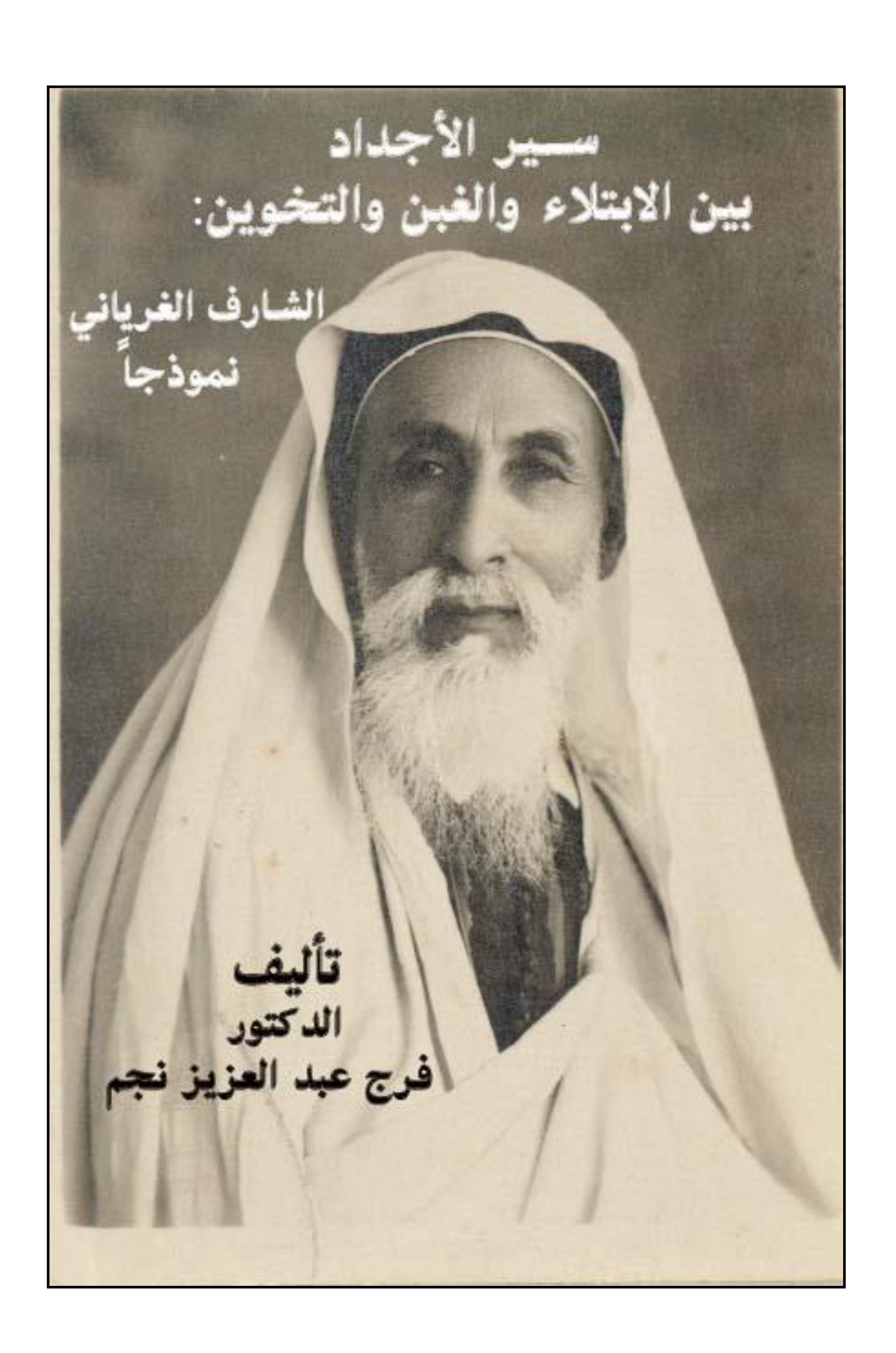

سير الأجداد
بين الابتلاء والغبن والتخوين:
الشارف الغرياني
نموذجاً
تأليف
الدكتور
فرج عبد العزيز نجم

أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان:

حَقيقٌ عَلَى أَن لاَّ أَقُولَ عَلَى اللّهِ إِلاَّ الْحَقَّ قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ[1]

صدق

الله العلي العظيم.

[1]سورة الأعراف – آية 105.

المحتويات

إهداء

أهدي هذه الوريقات إلى كل مظلوم ومغبون وخاصة الحاج السنوسي ابن الشارف وأحفاده وأقاربه في بنغازي وغريان وزاوية الجنزور اللذين ساعدوني في الحصول على كل ما يمت للشارف باشا من قريب أو بعيد، وكانوا مستعدين لأية نتيجة يصل إليها هذا البحث شريطة تحري الصدق والموضوعية بقدر ما شعروا به من مرارة الظلم والغبن التاريخي.

فأقول لهم: لستم وحدكم المظلومين فأكثر الناس ابتلاء ومظلومية هم أنبياء الله تعالى والصالحون وفي مقدمتهم آل البيت والصحابة والأئمة الأعلام ... فهنيئاً لكم.

فرج عبد العزيز نجم.

مقدمة

المبتغى من هذا البحث في هذا الموضوع الشائك والمثير للحساسيات هو تقديم استئناف ضد حكم جائر صدر في حق الشارف الغرياني الذي أخذته نموذجاً لمناقشة جملة من الملفات التي طالما تمنى البعض نسيانها، وبموجبها ابتلي وغبن بل خون بعضنا كما حدث في شخص الشارف الغرياني بدون حيثيات للإدعاء، ولا شهود، في محكمة خلت من أبجديات العدالة. وفي الآن نفسه لست بصدد إنزال الشارف الغرياني بمنزلة الشهيد الرمز عمر المختار، ففي نظري المتواضع الأخير ليس كمثله أحد فيمن عرفنا من الرجال إبان حركة جهاد الآباء والأجداد ضد الغزاة الطليان، وابن المختار .. بأبي وأمي .. لا يقاس به ولا يقاس عليه في تلك الملحمة .. ولكن .. يا من يبحث عن الحقائق المقدسة إنها الأمانة التاريخية التي نجد أنفسنا مضطرين أن نقدمها كاملة ناصعة حتى نكون قد أسدينا تاريخنا

الحق المستحق، ونكون قد ساهمنا في دفع الحركة التصحيحية والمجددة لتاريخنا.

ثم اختم وأقول؛ ما كان في هذا العمل من صواب وفائدة، فالفضل فيه يرجع لله تعالى وحده، وما وجد فيه من خطأ أو نسيان فهو من صنع يدي، وأنا وحدي المسئول على ذلك أمام الله تعالى، ومن ثم الملأ.

فرج عبد العزيز نجم

لندن

2005

تمهيد ...

كثرت في زماننا هذا الأحكام المسبقة وخاصة تهمة العمالة لحذاء الأجنبي في أجواء غلب عليها اللغط والشوشرة نتيجة مواقف شذ كثير منها عن القاعدة، فثمة ساسة عصف بهم غبار الدبابات، وأثرت فيهم تقلبات الدهر سواء في العراق وفلسطين أو غيرهما من بلداننا.

ونحن الليبيين لسنا استثناء وخاصة تاريخ أجدادنا وما اعتراه من ابتلاءات وغبن وتخوين، لهذا نطمح إلى أن نرى دراسات جادة ورائدة يُسعى فيها إلى **عقلنة التاريخ وتحريره من المقاربات التقليدية والمكرورة التي تعتمد السرد والحكي، وتقف عند مجرد العرض والوصف للأحداث والوقائع** ...[2] فالمبتغى من هذا البحث أن أُشرك معي في هذا الهم والأرق كل باحث عن الحقيقة ... لعل فيما توصلت إليه من معلومات، يكون مادة

---

[2]راجع: الصفحة الثقافية لجريدة العرب: 04/5/4م (لندن).

للدحض أو التصويب، أو التعميم إن كانت صحيحة، وكما قالت هيئة تحرير مجلة عراجين في افتتاحيتها:

لا ندعي امتلاك الحقيقة، ولكن يمكننا القول أننا ندعي صدق الانتماء وصدق الاجتهاد، فما أكثر القضايا العصية على القراءة، وما أكثر الأسئلة الكامنة في تاريخنا البعيد والقريب، وهو تاريخ يرفض النسيان ويرفض التزوير، وقبل هذا يرفض وحدانية القراءة.[3]

وكثير هم من ظلموا من أجدادنا إبان الاستعمار الإيطالي سواء على أيدي المستعمر مباشرة أو أولئك الذين لم تُذكر لهم فضائلهم في تخفيف وطأة المستعمر سواء بنسيان تلك الفضائل أو بالأسوإ من ذلك بتنكرها وجحودها جملة وتفصيلا .. يقول

---

[3]مجلة عراجين (أوراق في الثقافة الليبية)، العدد الأول ص 5.

المولى عز وجل: **ولا تنسوا الفضل بينكم** ..[4] فهل يا ترى ستذهب كل هذه الفضائل عبر السنين أدراج الرياح في ما فعلته عدسة العقاد،[5] على سبيل الحصر لا المثال، أو كما الدور الذي لعبه الممثل الإنجليزي القدير جون غليوغود John Gielgud في أقل من خمس دقائق من إساءة إلى الشارف باشا وكذلك السادة السنوسية في فيلم عمر المختار.

الشيخ العبار ....

---

[4]سورة البقرة – آية 237.

[5]مصطفى العقاد سوري الأصل، أمريكي الجنسية والموطن، مخرج فيلم "**عمر المختار**" الذي كان له الأثر الطيب في التعريف بعمر المختار وقصته الملحمية، عندما أنجزه بتمويل وعناية ليبية في نهاية السبعينات، وكذلك فيلم الرسالة، مستخدماً مشاهير السينما العالمية من بلدان عدة، وقام بترجمته إلى لغات عدة وخاصة الإسلامية منها. وصورت وقائع الفيلم في الجبل الأخضر والصحراء الليبية وإيطاليا التي في مجملها تروي شخصيات وأحداث حقيقية باستثناء بعض المشاهد التي زورت فيها بعض الأحداث مثل "تخوين" الشارف الغرياني والسيد محمد الرضا، التي هي محل شك، وغيرها من الشخصيات و الأحداث التي تحتاج إلي مزيد من التمحيص و التحقيق.

راجع: نجم، فرج عبد العزيز، مقالة:**العقاد الرسالة وقصة فيلم عمر المختار**" جريدة القدس العربي – لندن – بتاريخ 2005/11/22م.

فقد نُقل عن الشيخ المجاهد عبد الحميد العبار أنه قال: **إن أكثر من ظُلم هو الشيخ الشارف الغرياني**. والشيخ عبد الحميد لا يستطيع أحد أن يزايد عليه لأن صفحته ناصعة البياض. فهو من الشيوخ المعدودين في قبائل السعادي في برقة، وأحد أركان زعامات العواقير التي تضم أيضاً الشيخ عبد السلام الكزة والشيخ سليمان رقرق والشيخ ابريك اللواطي، وهؤلاء جميعهم كانوا نواة المقاومة الباسلة بقيادة السيد أحمد الشريف، وهم القادة الأوائل الذين أطلقوا الرصاص على الطليان سنة 1911م - حتى قبل الشيخ عمر المختار - والشيخ عبد الحميد العبار كان آخر القادة ممن أطلق الرصاص قبيل مغادرته أرض الوطن نهاية سنة 1931م بعد إعدام الشيخ عمر المختار في السنة التي قبلها.

ومرد موقف الشيخ عبد الحميد في الإشادة بالشارف الغرياني هو أن الأخير ساعده على الإفلات من قبضة الطليان عندما

نصبت إيطاليا فخاً للشيخ عبد الحميد ولكن مرسول الشارف باشا إلى الشيخ عبد الحميد كان أسرع عندما نقل له أبيات شعر شعبي يحثه فيها على الخروج بسرعة:

بيع الغنم و أكرم الخيل كسابة أكحيله عصارا
راه الخارمة اتودر الطير و راه الحاطه في الشكاره

وبالفعل استطاع الشيخ عبد الحميد النجاة بفضل الله تعالى، ثم الشيخ الشارف الغرياني.[6]

حرائر آل الكزة ....

[6] الغرياني، الشارف عبد السلام – التاريخ لا يروى في قصص قصيرة (رسالة رد في هيئة مقالة لم تنشر) 1999م.

ولم تكن هذه الحالة اليتيمة التي أنقذ فيها الشارف باشا أحداً من الليبيين، فقد جاء في شهادة خزنة عبد السلام الكزة[7] أنها بعدما وقعت في الأسر سنة 1927م وكانت حينها بصحبة فاطمة الغرياني زوجة أبيها الشيخ عبد السلام الكزة وإبنتها امباركه – وكان عمرها ثلاث سنوات – وكانت حينها الغريانية حبلى، وعلى الرغم من ملاحقة الطليان للشيخ عبد السلام وخطورة الأمر، فقد تقدم الشيخ الشارف وطلب من السلطات أن يتكفل هو بهن، وبالفعل أخذهن وبقين في بيته وأنجبت الغريانية ابنتها سليمة التي التقيت بها وأكدت لي في استماتة بأن الشارف الغرياني قام بالواجب معهن وأكثر، فقد أكرمهن وعندما ولدت سليمة الذي تزامن قدومها مع ولادة أبنه الوحيد السنوسي، قام بالواجب من ذبيحة ووليمة وغيرها من سنن المولود نيابة عن الشيخ عبد السلام، ومن ثم استلمهن الشيخ

---

[7]زهري، زينب محمد – موسوعة روايات الجهاد (عدد خاص عن المرأة الليبية في الجهاد) (عدد 37) سنة 1995م ص 51-57.

المرتضي الغرياني ليذهب بهن إلى طبرق ومن ثم أرسلهن إلى الشيخ عبد السلام في مقر الدور ومن بعدها هاجرت بصحبة أبيها إلى مصر.

وهذه روايتها بالتمام والكمال: .. أمي فاطمة بنت المرتضي الغرياني وهي بنت عم الشارف الغرياني .. وقعت أمي وأختي – من أبي – خزنة وأختي الصغيرة امباركة وكان عمرها **3** سنوات في الأسر عند الطليان وكانت حينها أمي حبلى بي، ولم يتجاوز حملها الشهر إلا بقليل .. وعندما علّم خالي الشارف بأسرنا انزعج وحذر الطليان من مغبة هذه الحرمات، ودخل على النساء وقال لهن:

"**وصلتن للحماه والسوء عنكن زال .. وراهو الصغيرة نا خوها والكبيرة نا ولدها**".

ومن ثم أخذنا خالي الشارف إلى بيته ولم يفعل أي شيء بطال، وقد توفيت أختي امباركة عند خالي الشارف الغرياني ولكن بعدها ولدت أنا في نفس الأيام التي ولد بها ابن خالي الشارف الوحيد السنوسي، وأولم وأقام أسبوع واحد لأبنه ولي وكذلك أربعين، واعتنى بنا ووفر لنا الأكل والكسوة والمأوى حتى جاء جدي المرتضى وأخذنا معه إلى زاوية أم الركبة في طبرق .. وفلح قبلها خالي الشارف في تهريب أختي خزنة إلى أبي شرقه في مصر، وعلم الطليان بهروب خزنة فجن جنونهم فحبسوا أخوالي كأبناء المرتضي (صالح وعمران) لأن بوي كان مطلوباً لدى الطليان.

بقينا عند جدي المرتضي أكثر من 3 سنوات ومن بعدها خيروا أمي فاطمة بين الطلاق والبقاء معهم في برقة أو البقاء على ذمة عبد السلام الكزة ومن ثم اللحاق به متى وعندما نتمكن، فقالت: لا والله لا اكتب الغيبية (أي أطلب الطلاق) ولا نقزن (أيتم) بنتي.

وكان خالي الطيب بوعبد الله يمشي ويجي على مصر وقال لأمي سأوصلك لراجلك وبالفعل خذانا للبحيرة ومن ثم بعث والدي ولد عمه الذي رجع بنا إليه بعد حربه على وطنا وهجرته للكفرة ثم مصر وكان عمري لم يتجاوز 3 أو 4 سنوات عندما وصلته. وبقيت مع والدي 14 عاماً أي كان عمري عندما توفي والدي قرابة 17 سنة.[8]

بوشنيف الكزة ....

أما العمل الجليل الآخر الذي أسداه الشارف باشا لآل الكزة كان للشيخ المجاهد بوشنيف محمد الكزة، الذي جاهد تحت إمرة السيد أحمد الشريف، وكان أحد ضباطه، وبعد توقف حركة الجهاد استقر الحال بالمجاهد بوشنيف في نجوع العواقير

[8]لقاء أجريته مع الحاجة سليمة ابنة المجاهد عبد السلام الكزة وزوجة سيف النصر عبد الجليل في بنغازي بتاريخ 2 سبتمبر 2005م.

جنوب سلوق لفترة من الزمن، لينتقل بعدها للإقامة في مدينة سلوق، ولكن بوشنيف لم يرق ولم يمتثل للشروط الإيطالية، ولكن مع استمرار الملاحقة والمضايقات، توجه إلى بنغازي قاصداً الشارف باشا الغرياني.

أثناء المقابلة ابلغ بوشنيف الشارف باشا بأنه يريد أن يقدم شكوى ضد الحاكم (المتصرف) الإيطالي في سلوق، لأنه طلب منه مغادرتها والتوجه إلى النجوع، فقال له الشارف الغرياني: أنت تريد أن تقدم شكوى للحكومة الإيطالية في بنغازي ضد حاكم إيطالي في سلوق، فهذه قضية معروف حكمها مسبقاً، ولم يقل له طبق ما طلب منك .. ولكن لكرمه وحبه لأبناء وطنه طلب من بوشنيف بأن يقيم معه في بيته بمدينة بنغازي، ومكث بوشنيف في بيت الشارف باشا ما يقرب من العامين، ولم يقف الكرم وحسن المعاملة عند هذا الحد، بل اقترح على بوشنيف بأن يتزوج .. فرد بوشنيف: فيش وبيش .. أي ليس عندي مكان ولا مال يمكنني من الزواج، فرد الشارف باشا

قائلاً: فيه فيش وبيش .. أي أنه سيساعده في بناء أسرته، وفعلاً تم زواج بوشنيف من ابنة عمه (عائشة محمود) واستمر في دعمه لعدة سنوات، وأنجبت عائشة لبوشنيف ابنه الوحيد محمد وأربعة بنات.

والعلاقة بين أحفاد بوشنيف وأحفاد الشارف الغرياني لا تزال قائمة ومتينة حتى الآن لأنها بنيت على تقوى الله تعالى وحب فعل الخير.

مع آل كعبار ....

وكأن بيت الشارف الغرياني غدا مضافة مفتوحة، ومكتب مساعدات اجتماعية وسياسية واقتصادية للعزاب والمتزوجين والمطلوبين وكل من له حاجة للقضاء، وللعلم هذا لم يقتصر على أهل برقة من حضر وبادية أو ذوي الحاجة بل حتى ميسوري الحال من خارج برقة كما هو الحال كان مع آل كعبار.

عائلة كعبار من علية القوم في منطقة غريان، تقطن منطقة تغرنة بذات الجبل، جاهدت في سبيل الله، وقدمت الغالي والنفيس من أجل الدين والوطن، ولكن كسائر الليبيين أرغموا على النزوح جنوباً بعدما احتل الاستعمار الإيطالي أراضيهم، ومن هناك بعث السيد مختار كعبار ابنه، محمد علي، إلى الشارف باشا يطلب منه المساعدة لما عُرف عنه من كرم وإغاثة الملهوف، وكان حينها الشارف الغرياني لازال في إجدابيا.

وفي إجدابيا كادت أن تحصل كارثة لمحمد علي كعبار، فلقد قام بجولة في مدينة إجدابيا بعد نزوله كضيف في منزل الشارف الغرياني، وأثناء تجواله اشترى علبة سجاير من بائعة إيطالية كانت تمتلك أحد الأكشاك القليلة الموجودة حينذاك في إجدابيا، وحيث أن عائلة كعبار يغلب على بشرتهم البياض، وهذا ما لفت نظر تلك الإيطالية عندما رأته يرتدي الزي الوطني المتمثل في العباءة ويجيد الإيطالية ما أثار في نفسها الشكوك والمؤامرة، وعندما رجع إلى مضافة الغرياني في بيته

كانت تلك السيدة قد بلغت إحدى الدوريات الإيطالية عليه، فاتبعوه حتى دخل بيت الشارف الغرياني وإن لم يروا صفحات وجهه.

فطرق رجالات الدورية بيت الشارف باشا وطلبوا خروج الرجل الذي دخل لتوه (محمد علي كعبار)، فما كان على الشارف الغرياني إلا أن يتصرف بحكمة وتروي لأنه لا يرضى أن يرى أحداً من أبناء هذا الوطن المغتصب يتعرض لأذى، فطلب من أحد مساعديه وهو سعيد أحمد منيسي العقوري أن يرتدي نفس الملابس التي كانت على كعبار، وأن يخرج معه للشرطة الإيطالية وسلمه لهم، ولكن عندما أخذوه للبائعة الإيطالية قالت: إنها نفس الملابس ولكنه ليس الشخص الذي رأيته، ولكن الشارف باشا أصر على أنه هو الشخص الذي دخل بيته، ولا يوجد غيره في البيت، وبعد أن اطمئن على سلامة ضيفه كعبار أمده بالمؤن وجهزه بكل ما يحتاج، وخير دليل على هذا كله الرسالة التي بعث بها آل كعبار للشارف باشا شكراً

وعرفاناً للموقف المشرف لمؤازرة الأشقاء في السراء والضراء، فجاء فيها :

... وما تفضلتم به من خير وعناية ومعاونة لأبننا محمد علي كعبار عند زيارته لحضرتكم بإجدابيا وتخليصكم له من أيادي الأعداء فهو لفضل وجميل عظيم لا ينسى وذلك دليل على شهامتكم وعلو مجدكم وعاطفتكم فإنني دوم الآبدين لمديون لحضرتكم بعظيم الشكران فالله سبحانه وتعالى يكافيكم على كل خير فعلتموه باللطف والإنعام والإحسان ...

ابتلاء وعناء ....

لكن شدني كثيراً ما قاله الشيخ عبد الحميد في حق الشارف باشا الغرياني، وزادني حيرة وهماً ما أخبرني به الأستاذ المرحوم

عبد المولى دغمان[9] دفاعاً عن الشيخ الشارف. فصار يؤرقني ما طال هذا الرجل من إساءة، فصرت أبحث لسنين، وكلما حققت في مصادر هذه الإساءات وجدتها على أرضية هشة، وكلما غصتُ في تاريخ الأجداد كانت تبرز لي شخصية الشارف الغرياني من حين لآخر بفضائل الأفعال. و لكن كما يقول الشاعر:

ومن ذا الذي ترضى سجاياه كلها
كفى المرء نبلاً أن تعد معايبه

وذكّرني أحد الأحبة عندما تذاكرت معه الموضوع ذاته بأن الصحابي حاطب بن أبي بلتعة كان ممن ابتلاهم الله تعالى بالتخابر مع العدو حتى كاد سيدنا عمر أن يقطع رأسه، بعدما

[9](1930-2001م)من الشخصيات المشهود لهم بالفضل، وأكاديمي مرموق عمل في حقل التدريس ومن ثم تولى رئاسة الجامعة الليبية وفي عهده وضع حجر الأساس للمدينة الجامعية الحالية ببنغازي.

اتهمه بالكفر والنفاق، ولكن دافع عنه المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم وقال لعمر:لم يفعل الكفر، بل بيَّن له أن حاطباً كان صادقاً ولم يكفر. فقال: أليس من أهل بدر، ... لعل الله اطلع إلى أهل بدر فقال: اعملوا ما شئتم فقد وجبت لكم الجنة ... أو فقد غفرت لكم، ... فدمعت عينا عمر وقال: الله ورسوله أعلم.[10]

ولكن أكثر الناس ابتلاءً واتهاماً هم الرسل والأنبياء ...؟ ألم يتهم الحبيب المعصوم عليه الصلاة والسلام بالسحر والجنون، وابتلي في عرضه عندما قُذفت السيدة عائشة في حادثة الإفك الأليم ...؟ ولكن هيهات ... هكذا الحياة ملآى بالقتاد والشوك لمن هم عظام.

فنحن مدينين لهؤلاء الناس بأن نصحح التاريخ الذي كتب عنهم ونرد لهم الاعتبار، فمن أحسن يجب أن نذكر له ذلك

---

[10] راجع: مسند أحمد بن حنبل (350/3).

ومن أساء نستطيع أن نقول عفا الله عما سلف. وأول من نرد لهم الاعتبار هم السادة السنوسية، وفي مقدمتهم السيد صفي الدين أحد أبطال معركة القرضابية، والدور الذي لعبته الحركة في استنهاض الأمة وإصلاح حال الليبيين، ووضع اللبنات الأولى لدولة ليبيا الحديثة. ومن ثم نصحح مفاهيمنا حول بعض الأعلام الليبية كالشارف باشا الغرياني وبعض المجاهدين الذين غبنوا وفي مقدمتهم الشيخ المجاهد القائمقام عبد الحميد العبار، وآخرون غير مشهورين كالمجاهد عبد السلام بوعند العبيدي (قبيلة العبيد) الذي أخصه بالذكر لأنه عاش عزيزاً فقيراً ومات كذلك. فقد أخبرني أحد الأصدقاء بأن المجاهد بوعند هاجر بعد استشهاد شيخ المجاهدين عمر المختار إلى مصر ومن ثم إلى فلسطين وكانت برفقته زوجته ومكثوا هناك فترة من الزمن وعادوا إلى أرض الوطن واستقروا في تاكنس في شرق ليبيا ليكمل حياته فقيراً معدماً على الرغم من أن جسمه يشهد له بالبطولات فلا تجد مكاناً إلا وفيه أثر الرصاص، وأعقب المجاهد

بوعند ثلاثة أولاد يقيمون الآن ببلدة تاكنس في حالة من العوز والحاجة ... وعندما سألهم بعضهم لما لا تتكلمون عن أبسط حقوقكم وهو المسكن الصحي المناسب وأبوكم من المجاهدين الكبار الذين ضحوا بأنفسهم من أجل الوطن ... قالوا: إن الذي عمله أبونا كان خالصاً في سبيل الله ولم يطلب عليه أجراً أو جزاءً من أحد ... والحمد لله على كل حال ويكفينا شرفاً أننا أبناء بوعند .. ![11]

المهشهش ....

إن مسيرة جهاد الأجداد كانت حافلة بالابتلاءات، ولعل ما أصاب الشيخ المجاهد الشاعر الفضيل المهشهش[12] كان أشنع

[11] اخبرني بعض الأصدقاء وهم من أقارب المجاهد بوعند بهذه القصة المؤسفة.

[12] شارك رفيق درب الجهاد الشيخ صالح لطيوش اغلب المعارك وخاصة الرمسة وبلال والبريقة والقرضابية، وصادرت إيطاليا ما حصلت عليه من ممتلكاته، فهدمت بيته واستولت على مزرعته في إجدابيا، ومن بين من شهد له بالصلاح والشهامة والشجاعة والصدق السيد أحمد الشريف، كما عُرف بشعره الغزير ومرثياته الوطنية حتى وافته المنية في المنيا بصعيد مصر في

ما وصلني عن أولئك المظلومين. والشيخ الفضيل يعتبر أحد عُمد الجهاد وأركانه، كان من بين شيوخ البدو المتفق على رجاحة عقولهم ومن القلائل الذين حفظوا الكتاب عن ظهر قلب، وجاهد في سبيل الله حق الجهاد. فقد صرف من ماله الخاص على الدور الذي انتصر في معركة بير بلال (تعرف عند العامة بواقعة الكراهب) عدة أيام، وقاتل قتال الأبطال بدمه وماله،[13] وبعد أن أنفق كل شيء كان في حوزته في سبيل الواجب المقدس مَال عليه الدهر، فقد سقط والده الطاعن في السن برصاصة طائشة غادرة خرجت منه عن طريق الخطأ لتستقر في جوف ذاك العجوز المسكين وتنهي حياته وتبدأ حياة البؤس والندم والبلاء للشيخ فضيل. ولم يستطع شيخنا أن يتحمل فقدان الوالد والمال والوطن فلجأ إلى مصر، وترك برقة ليستقر به المقام في صعيد مصر وقد أثقلته الهموم حتى إنه سمع

أواخر 1941م عن عمر يناهز سبعون عاماً وللعلم ان المقبرة التي دفن بها ب واهنا في المنيا سميت بمقبرة سيدي الفضيل المهشهش بمنطقة عيت بالجود الجوازي.

[13]العيساوي، محمد الأخضر – رفع الستار عما جاء في كتاب عمر المختار صـ 66-67.

بتلك الملحمة الشعرية التي ابتدأها مبتلى آخر وهو الشيخ محمد زيدان يحكي فيها عن مأساة أجدادنا، فأطلق صرخته التي أصبحت من عيون الشعر فقال:

أحوال حايله بين المنام وطيبه

احوال جبدهن للناس فيه الغيبه

فسمع الشيخ الفضيل هذه الأبيات فرد يشكو حاله بالشعر فقال:

أحـوال يبكـن

أحوال على اليمين واليسار يتكن

أحوال خلفن عقدات ما ينفكن

بـاب النجاة منهـن الله يجيبه

فسمع الشيخ عمر بوعوينه المنفي ما قاله الشيخ الفضيل فحز ذلك في نفسه، فبعث له هذه الأبيات مواسياً فقال:

أحوال من شـبكهن

مغير اطلبه ساهل عليه فككهن

إن كان هن ذنوب برحمته يتركهن

وأن كان رزق مو واعر عليه يجيبه.[14]

أكثر الناس ابتلاءً ....

وفي نظري أكثر الناس ابتلاءً كان ذلك الرجل المغمور تاريخياً – ويدعى عبد الله – وقبيلته من أكبر وأعنف قبائل برقة قتالاً للطليان، فكان ذلك المبتلى مجاهداً معروفاً ولكنه اضطر إلى التجند مع العدو، ولكن بلاءه كان أعظم عندما رُزئ ببلوى يرويها المجاهد التواتي عبد الجليل المنفي قائد طابور المعية الخاصة

---

[14] راجع: ديوان الشعر الشعبي (الجزء الاول 1989) صـ 237-249.

بالشيخ عمر المختار فيقول نقلاً عن المجاهد حمد محمد المختار ابن أخ الشهيد عمر المختار: "**كنا غرب منطقة سلنطة ... هاجمنا الأعداء الخيالة وقتل حصان سيدي عمر المختار، فقدمت له حصاني [أي حصان حمد] وعندما هم بركوبه قُتل أيضاً وهجم الأعداء عليه .. ورآه أحد المجندين العرب وهو مجاهد سابق له دوره .. ذُهل واختلط عليه الأمر وعز عليه أن يقبض على عمر المختار فقال: يا سيدي عمر .. يا سيدي عمر !! فعرفه الأعداء وقبضوا عليه ... ورد عمر المختار على المواطن الذي ذكر اسمه ... وهو عبد الله ... بقوله: عطك الشر وابليك بالزر..** ".[15]

---

[15]شريط سجله وقام بتفريغه د. مصطفى سعد الهاين سنة 1979م للمجاهد المشهور التواتي عبد الجليل العرابي المنفي كومندار المعية الخاصة لعمر المختار المودع في مركز دراسات جهاد الليبيين بطرابلس تحت (14–482/483).

يا لها من حسرة على ذاك المسكين المبتلى، وكأن الإمام السجاد على زين العابدين عناه عندما قال:

يا زلةً كُتبت في غفلة ذهبت
يا حسرةً بقيت في القلب تحرقني
دعني أنوح على نفسي وأندبها
وأقطع الدهر بالتذكير والحزَنِ

البدو وعصبيتهم ...

قال بعضهم إن كثيراً من العلماء والوجهاء كالشارف الغرياني غير معذورين في القعود عن قتال المحتل وخاصة أهل العلم منهم ..؟ كما تساءل بعضنا لماذا قاتل البدو أكثر من غيرهم ولجأ بعض الحضر وسكان المدن إلى المهادنة ..؟

أقول – والله تعالى أعلم – إن البدو معروف عنهم عصبيتهم النابعة من الشجاعة والإقدام التي يشتركون فيها مع الحضر، ولكن ما زادهم قوة وشوكة هو كثرة عددهم إلى جانب اقتصادهم الحر والمتنقل معهم متمثلاً في مواشيهم في حياة تحركها دوافع قبلية معقدة، الأمر الذي ضمن لهم شيئاً من الاستقلالية والتكافل الاجتماعي، كذلك مقدرتهم الفائقة على التكيف في أشد وأبشع الأحوال، كذلك امتلاكهم الأراضي الواسعة والوعرة التي يستطيعون أن يتنقلوا بينها بسهولة، وإذا اضطروا لجأوا إلى دول الجوار وخاصة مصر وتونس وتشاد، حيث أبناء العمومة والحلفاء، فإذا نظرنا إلى وطن قبيلة الزنتان على سبيل المثال وحلفائها في منطقة القبلة، وتعرف هذه المنطقة أيضاً بالظهر، جنوب جبل نفوسة في الحمادة الحمراء التي تفصل فزان عن طرابلس، فان قبيلة الزنتان تعيش في أراضى عرضها 450كم مربع تقارب مساحتها نصف مساحة الأردن

أو اكبر من مساحة سويسرا،[16] علماً بأن هذه القبيلة لها أراضٍ وأملاك أخرى. وهذا ما لم يمكن توفره للحضر الذين عاشوا في تكتلات عائلية قليلة العدد نسبياً محشورة في أزقة مدن وقرى لا تعرف غيرها مأوى أو معاشاً،[17] ومنهم الشارف الغرياني وذووه.

رجال الشدة والحدة ...

---

[16] نجم، فرج عبد العزيز – القبيلة و الإسلام و الدولة في ليبيا (باب القبيلة والقبلية) ص 251-252.

[17] راجع: مقدمة ابن خلدون – الفصل الخامس: أسباب شجاعة أهل البدو، (في أن أهل البدو أقرب إلى الشجاعة من أهل الحضر).

إلا أن ابن خلدون قال عن نفسه بعد لقائه الشهير بتيمورلنك، وكان مغولياً بوذياً: «فلما دخلت عليه فتحته بالسلام، وأوميت إيماءة الخضوع، فرفع رأسه، ومد يده فقبلتها، وأشار بالجلوس، فجلست، حيث انتهيت» (كتاب التعريف).

راجع: الخيون، رشيد – مقالة "**بغداد**.. **أي مفاتيح سَلمها ابن العلقمي؟**"، جريدة الشرق الأوسط (لندن) تاريخ 2007/4/4م.

ومن الشمائل التي عُرف بها كثير من رجالات الجهاد هي الشدة والحدة في التعامل حتى نُعت بعضهم بـ شواقير الشر.[18] وهذه ليست غريبة على المجتمعات الإنسانية لأن الظروف أحياناً تتطلب رجال أشداء ليقوموا بأعمال تتسم بالعنف، وفي تراثنا الإسلامي نعرف أن من كان شديداً في جاهليته أصبح شديداً للإسلام، وما فعله سيدنا عمر ليس ببعيد عنا حين أعلن إسلامه أول ما قام به هو تحديه لقريش. فكثير من رموز الجهاد كانت على حدة وصرامة على عكس ما كان عليه الشارف الغرياني الذي اتسم بلين العريكة والوداعة في التعامل كما يبدو من سيرته. أما رجال كصالح لطيوش الذي كان يعرف بين رجاله بـ الاشكل، أي الرجل صاحب المشاكل، ولعل القصد منها هو ليس إفتعال المشاكل بل حلها بطريقة أو أخرى حتى وأن كانت عنفية.

---

[18] ويقصد بـ الشواقير: سواطير (جمع ساطور)، أي الذين يتأبطون الشر أينما كان مكانه أو وجهته.

وما سيرة البطل الشهيد إبراهيم الفيل ببعيدة عنا حيث عُرف الرجل قبل غزو الطليان لليبيا بصراعه لحكام الوطن الأتراك، وكان مطلوباً من قبل سلطات الدولة العثمانية، وكان الأتراك يسمونه بـ "الجناية"، لأنه رفض دفع ضريبة الميري على أغنامه. كما رفض فكرة الضرائب جملة وتفصيلاً، لأن السلطات تمادت في الضرائب فأثقلت كاهل الأهالي بها. فحملت عليه السلطات العثمانية وطاردته، فاضطر لترك موطنه شرق بنغازي إلى التعسكر في منطقة القوارشة في غرب المدينة بأغنامه قبل الاحتلال الإيطالي لليبيا، حتى أسماه بعض المغرضين بقاطع الطرق، ولعله أُجبر على ذلك للعيش.

ففي معركة بلال الأولى كلفه صالح لطيوش، آمر الدور، ببعض المهام العسكرية، ففاتته المعركة الأمر الذي حز في نفسه، وقيل إنه بكى لعدم تمكنه من الحضور. فمازحه أحد المجاهدين عما أبكاه، فرد عليه إبراهيم وقال: **اهلبتني هل القطيعة** .. ويعني فاتتني تلك المعركة، فزاد الرجل من مضايقة إبراهيم وقال له:

والله لو قطيعة إسلام ما هلباتك .. مذكراً إياه بأنه كان ممن يقطع الطرق على حكام المسلمين الأتراك وعمالهم العرب، حيث لم يسلم أحد منه عندما كان مطارداً من القوات التركية. ولكن بشره الرجل وقال له: **سوك راح، بكره راسمه من جديد – وتي روحك لها**، ويعني: لم يفوتك إلا السوء .. فلا تيئسن .. غداً سترتسم المعركة وتبدأ من جديد، فجهز نفسك لها .. حيث كان الطليان قد عزموا على النزول من البريقة، فقرر المجاهدون ملاقاتهم.

وبالفعل في اليوم التالي التقى الفريقان وكان بجانب الشيخ إبراهيم رفيقه الملازم له دائماً رابح القبايلي. وبينما هما على صهوتي جواديهما سحب الشيخ إبراهيم لجام فرسه فقال له رابح: **قيسه صيرتلك ذلة يا شيخ إبراهيم**، أي يبدو أنك قد جبنت بعض الشيء، فقال له إبراهيم: **اللي فيه ذلة هو الخلي فيه اللجام**، أي الجبان من يتمسك بلجام حصانه، وأخذ لجام حصانه وطرحه على الأرض. وكان ذلك بمثابة تحدٍ لرفيقه رابح،

فما كان من رابح إلا أن طرح لجام حصانه أيضاً، وقبض كلاهما على سبيب جواده ونزل إلى ساحة المعركة بدون لجام، وتركا الأمر للجوادين يقودانهما حيثما شاءا ويقفان متى أرادا، وهذا ضرب من التهور والمجازفة، ونال كليهما الشهادة في ذاك اليوم المحموم.[19]

أما عبد السلام الكزة الذي عرف عنه إصراره في القتال قبل غزو الطليان وصراعه مع بعض من قبيلة الشهيبات، واللحاق بهم في شبرم على الحدود الليبية المصرية إلا دليل على شدة الرجل وعناده حتى قيل إن بعض من بني عمومته تخلو عنه في مغامراته، وهو صاحب أبيات شعر شهيرة قالها في مصر بعدما رأى شيء من الليونة التي أصابت المجاهد الفضيل المهشهش مبعثها حنينه الجامح للوطن فقال المهشهش مخاطباً فرسه:

---

[19]نجم، فرج عبد العزيز، أبطال وملاحم صـ 32-34.

هني بال من طبق نعال الخضرة

بعد هالراحة ولعبها في الجضرة

فرد عليه الشيخ عبد السلام بالآتي:

هني بال من بتتها وسارها نصيب

وشــورهم ليفتها

ومعي قوم حمره طايبة نيتها

كسارة صفافي لي فيهم نظره

وللعلم عبد ربه بوسيف الكزة هو من قتل جار الله شيخ الشهيبات في سوق الظلام ببنغازي حوالي عام 1903م، وشاركه في ذلك ابن عمه إبراهيم محجوب بوخزيم، انتقاماً لما فعلته قبيلة الشهيبات بإبل عيت الكزة، ولكن منصور ابن عبد ربه هو نفسه من تصيد الرصاص الذي كان يتطاير من حول الشيخ عبد السلام الكزة يوم الرحلان في معركة الحقيفات حتى

نهره الشيخ قائلاً: **شورك اتريد تحرمني من الجنة يا ولد،** فرد عليه: **ما مريدش نحرمك من الجنة لكن طيحتي أنا ياسيدي هي مفيت طيحت بيت اما طيحتك أنت هي طيحت نجع بحاله**. وبالفعل هو أول من سقط شهيداً من آل الكزة في معركة الرحلان الشهيرة ضد الطليان عام 1924م.

هذا كله لم يثني رجال آل الكزة بل حتى عندما نزحوا مهاجرين ونزلوا عند آل الكيشار – أخوال عبد السلام الكزة – بمصر فقد قتل أحمد عقيلة الكزة وناصر عبد السلام الكزة ومحمد بوزيد الفارسي خمسة من الجناة المصريين لقتلهم صالح باشا لملوم وأخيه عبد الرحمن اللذين قتلاهما غرمائهما المصريين في خضم وحرارة الانتخابات في صعيد مصر،[20] وقد حُبس الليبيون في مصر ولكن تدخل باشوات العرب وحلو المشكلة بينهم، وأطلق سراح الجماعة.

---

[20]نجم، فرج – تاريخ وجهاد آل الكزة (مخطوط).

حسين شهاوي ...

من الشخصيات المثيرة التي تعرفت على شيء من تاريخها هي سيرة حسين بوشهاوي الشبلي. كان بوشهاوي صاحب "فرسنة" وشعر وله باع وما يقال فيهما، فقد قاتل المستعمر الإيطالي وكان من الشيوخ المعتزين بأنفسهم وقبيلته "العواقير" التي ينتمي إليها، وانتقل مع من انتقل مع الدور إلى منطقة إجدابيا حيث يرابط المجاهدون، ولكن ازدراء بعض شيوخ المجاهدين ونظراتهم الدونية له أحدثت شيء في نفسه وخدشت مشاعره وكرامته، فأُضطر إلى الأسوأ، وأخذته العزة بالآثم، فانتقل من معسكر الكرامة والجهاد الذي أبلى فيه بلاء حسن ما أضغن صدور الطليان عليه وذلك بشهادة المشككين من بعض الضعفاء من الشيوخ المحسوبين على الجهاد، ولكن سخرية القوم دفعته إلى التواطؤ وخذلان الأهل ما أفرح صدور الطليان بعد بغض وغيظ، ولكن كما قال الشاعر:

لكل ساقطة لاقطة

ولكل راكدة سوق

فرحبت إيطاليا بخروج هذا الفارس عن معسكر الجهاد واحتفت بقدومه إلى جانبها وأكرمته، وبالغت، وأعطته ما حرمه منه اخوته في العقيدة والدرب، ما أضغن صدور المجاهدين عليه وما ترتب على ذلك من انقلاب بعض من كان في صف الجهاد والحق لينتقل إلى البغي والطليان.

كان انتقاله إلى صف العدو ضربة موجعة للمجاهدين وعون ما بعده عون للطليان، الذين عانوا على أيديه وأيدي إخوانه المجاهدين، فلقد حضر حسين بوشهاوي المعارك الأولى ضدهم ضمن دوّر العواقير، فكان مقاتلاً، ومعانداً نفاذ الطليان ونفوذهم في المنطقة. فالرجل كان معروفاً في منطقة قمينس (حيث نخل شهاوي) .. فكان غنياً، شهماً، وشاعراً، ولكن عندما بدأت المفاوضات والمعاهدات تتتالى أصابه شيء من

الريبة والشك فيما كان عليه .. فانقلب .. ولكن أُلقي القبض عليه بينما كان في عرس، وتم اعتقاله من قبل المجاهدين، ونُقل للدور في إجدابيا صحبة زميله عبد الكافي العقوري كان أثناء حضورهما لعرس بالقرب من قمينس، وحبسوه في منطقة إجدابيا، ولكنه الفارس الفحل الشجاع الذي كان هو، فسخر إعلامه القوي المتمثل في شعره في التحامل على إخوانه السجانين، ومن تسبب وأوجد تلك الحساسيات بينهم فقال فيهم:

سبيب إيطاليا مول النعال محلق

اجعنه على غفله جي مطلق

وهذا كان تعبيراً عن مرارة السجن والعبودية حتى انه تمنى أن تصله خيل (سبيب) إيطاليا لفك أسره وإطلاق سبيله، وبالفعل استطاع أن يكسر قيوده ويهرب منهم ويرجع إلى بيته ليعلنها

حرب إعلامية شعواء على إخوانه الذين ظلمهم وظلموه. ولكن للتاريخ لم تكن له باندة، ولم يدخل في حروب تأديبية ضد مواطنيه، ولم يقتل ليبياً، بل كان رجلاً أنيقاً في ملبسه، فصيحاً في حديثه، مرحاً بين الناس، له تواجد في كل المناسبات حتى أنه اختير عن قبيلته في برلمان حكومة إجدابيا برئاسة السيد صفي الدين السنوسي، وعضوية رجال عمالقة كالمجاهد سليمان رقرق وسليمان سعيد العرفي ومحمد الكيخيا ومازق بوشديق وخليفة بونجم وصالح المهدوي وعبد القادر بوبريدان وعبد الله الدلاف وغيرهم من الخمسين عضو الذين اختيروا ممثلين عن أهل برقة.

استشعر المجاهدون ثقل بوشهاوي وخاصة مواقفه الرجولية وما في جيبه من مال الذي استطاع أن يستقطب به الكثير من الرجال، وكذلك قوته الإعلامية المتمثلة في شعره التي باتت تصب الحمم على المخالفين له، فحاول المجاهدون استمالته ولكن الشيطان والنفس الأمارة بالسوء حالت دون ذلك،

ورفض عروض المجاهدين الذين لم يقروا له بوزنه بينهم، فما كان عليهم إلا أن يضعوا حداً لسطوته وانتشار ظاهرته بين الناس فأطلق عليه المجاهدون النار من الخلف، قرب كركورة غرب بنغازي، ليُقتل غيلة وخلعوا برنوسه وسلاحه وحملوها إلى معسكر المجاهدين حيث صالح لطيوش ليرى ماذا فعل فيه حكم الله، وكان من بين الجلساء المجاهد مفتاح الحِق الشبلي، ابن عمه، والذي خالف نهج بوشهاوي وناصبه العداء، فعندما رأى برنوس وسلاح ابن العم لم يتمالك نفسه فقال:

ولو كان قتلته جت يالانا

راهو سلاكه سابق الدفانة

وهنا المجاهد مفتاح الحِق يؤكد على أنه إذا لم يكن بوشهاوي قد تخلى عنهم، وأن قاتليه لم يكونوا من بيننا، لطلبنا بدمه و"سلكنا" فيه قبل دفنه.[21]

مولد ونشأة الشارف ...

رجوعاً للشيخ الشارف الغرياني والأرضية التي ترعرع وعمل فيها .. فلقد ولد الشارف أحمد أبو عبد الله الكميشي الغرياني سنة 1877م (1293هـ) بزاوية جنزور (الدفنة) منطقة البطنان جنوب شرق مدينة طبرق وتوفي في 26 فبراير 1945م ودفن في قرية بوزيان بغريان، والباشا هو سليل بيت سادة شرف وعلم وفضل، عرف عنهم التدين والتبحر في العلوم الشرعية. ترجع

[21]المصدر: الأستاذ الباحث سالم الكبتي **2006/03/26**م.

أصوله إلى قرية الكميشات بجبل نفوسة بمنطقة غريان،[22] وبها مرقد جده الشهير السيد أبي عبد الله الكميشي.[23]

كان أول من أتى من الغرب وبالتحديد من الكميشات من آل الغرياني الشيخ حسين بن عبد الله الكميشي الغرياني (عم الشارف) الذي التحق بالسيد الإمام محمد بن علي السنوسي عام 1843م (1258هـ) بعد لقائه به في طرابلس وانضم إلى مجلس إخوان السنوسية،[24] وكان ضمن من أتوا من الغرب ليفقّهوا بادية برقة في دينهم، ويقضوا بينهم بشرع الله تعالى، وعرف عن الشيخ الصلاح والتقوى والتفاني في عمله. استقر الشيخ حسين في بادئ الأمر في الجبل الأخضر حيث وجد الترحاب والكرم من أهل الجبل لاسيما بعد تأسيس الزاوية

---

[22]اغسطيني، اريكو دي – سكان ليبيا (تعريب وتقديم خليفة التليسي) صـ 447-448.

[23]الزاوي، الطاهر أحمد – معجم البلدان الليبية صـ 163-164.

[24]بن علي، عبد المالك بن عبد القادر – الفوائد الجلية في تاريخ العائلة السنوسية (القسم الأول)، صـ 55.

البيضاء التي خلعت اسمها على مدينة البيضاء، وهذا مرجعه إلى شيخ شيوخ الحرابي أبوبكر حدوث وعقل بدو الجبل وداهيتهم الشيخ عمر جلغاف اللذين بالفعل أعطيا للسيد الإمام أرضاً من أملاك عائلة حدوث بعد تنافس مع عائلة الجلغاف على الرغم من أنهما من بيت طامية أقوى بيوت البراعصة.[25] وشيدت على أرض عائلة حدوث الزاوية الأم على مقربة من ضريح الصحابي رويفع الأنصاري،[26] وتولى الشيخ حسين رياستها،[27] ومن ثم لحق بالشيخ حسين الغرياني شقيقه أحمد (ويعرف محلياً بـ حمد)، والد الشارف باشا، وانتقل الاثنان مع بعض الأقارب الذين وفدوا من غريان ليستقر جميعهم حول

---

[25]بازامه – تاريخ برقة في العهد القرمانلي (هامش) صـ 75-76.

راجع تفريع البراعصة وتقسيمات بيوتها عند: بازامه – تاريخ برقة في العهد القرمانلي صـ 224.

[26]بن علي، عبد المالك بن عبد القادر – الفوائد الجلية في تاريخ العائلة السنوسية (القسم الأول)، صـ 54-55.

راجع: نجم، فرج عبد العزيز – القبيلة والإسلام والدولة، صـ 213-215.

[27]الأشهب، محمد الطيب بن إدريس – برقة العربية أمس واليوم صـ 151.

زاوية جنزور حيث عينه السيد الإمام رئيساً لها ليخدم السنوسية حتى وافته المنية هناك وكان قبره كعبة الزوار من بادية تلك البقاع،[28] لهذا عُرف سلف وخلف الغراينة بمنطقة دفنة بمناصرة السنوسية ومشروعها الإصلاحي، وهم بالفعل من سهر على زاوية جنزور في منطقة البطنان التي تقطنها قبائل الجرارة والحبون والقطعان والمنفة التي خرج منها الشيخ الرمز عمر المختار. ويبقى أشهرهم الشيخ حسين الغرياني، عم الشارف باشا، الذي ظل شيخاً لزاوية دفنة (التي تعرف أيضاً بزاوية جنزور الشرقية) بعدما أسسها السيد الإمام محمد بن علي السنوسي في تلك الربوع.[29]

ورجال قبيلة المنفة عرفوا بحبهم الغراينة وتبركهم بهؤلاء المؤمنين حتى سموا أولادهم بأسماء الغراينة، فمن عادات البادية التبرك

[28] الأشهب، محمد الطيب بن إدريس – برقة العربية أمس واليوم ص 151.

[29] العيساوي، محمد الأخضر – رفع الستار عما جاء في كتاب عمر المختار ص 17، 92.

بالأشراف وأولياء الله الصالحين، ولعل أشهر منفي يحمل اسم الغرياني هو: المجاهد الغرياني مفتاح المنفي، عضو الجمعية الوطنية التي أسسها المهاجرون الليبيون للتصدي للمراحل القادمة من الجهاد السياسي.[30] واستمرت هذه المودة بين الشيخ الشارف وقبيلة المنفة، كما يبدو عندما ساعد الشارف باشا المجاهد محمد المنفي، المعروف بالكيلاني، الذي كان يهرب المؤن والأسلحة للمجاهدين. فقد ساعده الشارف باشا بإرسال من يقوم بإدخال صفقة للمجاهدين في هيئة تجارة كما روى أحفاد المجاهد.[31]

ولد عمر المختار بكهف في أحواز زاوية الجنزور، وخُتن في بيت حمد الحراتي الغرياني، والد الشارف، وعندما توفي والد الشيخ عمر المختار تكفل الشيخ حسين الغرياني – عم الشارف –

---

[30]العيساوي، محمد الأخضر – رفع الستار عما جاء في كتاب عمر المختار ص 237.

[31]الغرياني، الشارف عبد السلام – التاريخ لا يروى في قصص قصيرة (مقالة لم تنشر 1999م).

بتربية عمر المختار وتعليمه مع الشارف نفسه.[32] فنال كلاهما من العلم ما ناله، وانتقلا إلى واحة الجغبوب عاصمة السنوسية، ودرسا على يد كبار العلماء السنوسية.

الشارف مجاهداً وباشا ...

وبعدما داهمت إيطاليا ليبيا واحتلت سواحلها، انضم الشارف الغرياني إلى ركب المجاهدين كأحد المستشارين والوجهاء من أصحاب الرأي المعدودين، حتى أصبح أحد هيئة أركان قيادة جيش السيد أحمد الشريف في جهادهم ضد الطليان التي ضمت بالإضافة إليه كل من أحمد بن إدريس ومحمد الدروقي وحسن بسيكري وحسين كويري وعلي العابدية وأحمد المدني.[33] وعندما رجع السيد إدريس إلى برقة بعد قضاء فريضة

---

[32] الحسناوي،حبيب وداعه – عمر المختار (تحرير د. عقيل البربار)، ص 20.

[33] الحرير، إدريس صالح الاستعمار الاستيطاني الإيطالي في ليبيا 1911-1970م (هامش) ص 119.

الحج سنة 1915م كان الشيخ الشارف الغرياني من بين الوجهاء الذين استقبلوا السيد عند معبر السلوم، وكان على رأس المستقبلين السيد محمد الرضا السنوسي في ركب من 70 مجاهداً ساروا مع السيد إدريس حتى وصلوا إجدابيا العاصمة السياسية آنذاك.[34]

ومن ثم ليصبح الشارف باشا وكيلاً للسيد إدريس يقوم بالمهام الحساسة التي تستدعي الثقة والجدارة التي أناط السيد بها الشارف باشا ليشرف على استلام الذخائر والأسلحة من الإيطاليين ضمن الاتفاقات التي عقدها السيد إدريس مع الطليان، وإن شاء مراكز أمنية على الحدود وخطوط التماس لضبط سلامة هذه المراكز والمواطنين.[35]

---

[34]هويدي، مصطفى علي – الحركة الوطنية في شرق ليبيا خلال الحرب العالمية الأولى صـ 107.

[35]شكري، محمد فؤاد – السنوسية دين ودولة، صـ 112، 215.

كان ذلك ضمن رأى أهل الشورى الذي أدى بموجبه إلى مهادنة الطليان بعقد سلسلة من المفاوضات انتهت باتفاقية الرجمة (1920م) التي بموجبها أقرت إيطاليا للسيد إدريس بالإمارة وأصبح بذلك أميراً على الواحات والزوايا مقابل رواتب له ولأسرته ولشيوخ القبائل، وقليل من الأسلحة يحملها رجاله اعترافاً من إيطاليا بسلطته الفعلية والروحية على أرض الواقع.[36]

الشارف وسيدي عمر والمفاوضات ...

لقد سمعت من استهجن تفاوض السيد إدريس وبعض من المجاهدين وقادتهم للطليان، وهذا لم يكن كما نراه اليوم، فقد التقى وفاوض الشيخ الرمز عمر المختار الطليان، وهذا ما أعلى كعبه عن غيره هو ثقته بنفسه، ورجاله، وقضيته، مقرونة بمرونة

[36] خدوري، مجيد – ليبيا الحديثة (ترجمة د. نقولا زيادة)، صـ 30-31.

وبراغماتية افتقدها كثير من قادة الجهاد، فعلى الرغم من أن عمر المختار قاتل الطليان باستبسال فلم يجد ضيراً في مصافحة العدو والتفاوض معهم، حتى أن الدكتور وهبي البوري كتب عن مفاوضات سيدي ارحومة سنة 1929م: "**انتهى الاجتماع (سيدي ارحومة) بصورة ودّية وتبادل الطرفان الهدايا فقد وزّع بادوليو ساعات ذهبية على مساعدي عمر المختار وأهدى (عمر المختار) الأخير جواداً عربياً أصيلاً إلى بادوليو وأخذت الصور التذكارية للمفاوضين يتوسطهم عمر المختار وبادوليو وقد نشرتها مجلة اللطائف المصورة في وقته**".[37] وهذا لم يقتصر على هؤلاء فقط بل حتى على السيد أحمد الشريف الذي كان يقود خط عدم المهادنة أو الصلح مع العدو، وهو صاحب المقولة المشهورة "**لن افرط في الأرض ما مقداره مربط حصاني**"، وكقوله "**ربما اشرب الخمر قبل أن**

[37] البوري، وهبي أحمد، عمر المختار و بادوليو أو مفاوضات سيدي رحومة، مجلة "تراث الشعب (العددان 2،1) "مسلسل 52-53"، صـ 137-145، السنة 25 – 2005م.

أجلس مع الطليان على مائدة المفاوضات"،[38] ولكن عندما نزلت به النوازل، وحلت برجاله البلايا، وبلغ به الضيق والموت مبالغ، يقول الأمير شكيب ارسلان أن السيد أحمد قرر في نفسه الصلح مع الإنجليز الذين حاربهم، ولكنه سرعان ما عدل عن ذلك، ودعا لهم بالهداية حين قال: **فنسأل الله تعالى أن يغدق في قلوبهم إكرام الإسلام ومحبة أهله** ...".[39]

الشارف باشا مرافقاً لأمير برقة ...

هذا وقد اتخذ الأمير إدريس الشيخ الشارف وكيلاً له وأحد مستشاريه المقربين والمخلصين،[40] وقد رافق الشارف باشا

---

[38]الحرير، إدريس صالح – الاستعمار الاستيطاني الإيطالي في ليبيا 1911-1970، صـ 116- 117.

[39]هويدي، مصطفى علي – الحركة الوطنية في شرق ليبيا، صـ 57، 165.

[40]هويدي، مصطفى علي – الحركة الوطنية في شرق ليبيا خلال الحرب العالمية الأولى (ملحق رقم 23) صـ 249.

السيد إدريس في رحلته الرسمية إلى روما في أوائل ديسمبر 1920م، وكان في طليعة تلك الحاشية الأميرية إبراهيم الشلحي، وعدد من كبار الشخصيات كالعلامة عبد العزيز العيساوي، وعبد القادر فركاش، وعمر باشا منصور الكيخيا، وعلي باشا العابدية، وحميدة المحجوب، ومحمد الفزاني، وحسين بوخضره.[41] ولكن سرعان ما نكثت إيطاليا عهدها – كما هي عادتها – فاضطر الأمير إدريس للجوء إلى مصر في ديسمبر 1922م.[42] والمصادر التي في متناولنا أغفلت تماماً تفاصيل سيرة الشيخ الشارف الغرياني من البداية حتى سنة 1923م، كما أغفلت سيرة الشيخ عمر المختار الذي نعرف ما نعرفه عنه بعد توليه قيادة الأدوار[43] فيما عرف بترتيبات هيئة الجبل إثر انهيار حكومة إجدابيا التي ترأسها الأمير إدريس السنوسي الذي ترك البلد للاستقرار في مصر حتى رجوعه نهائياً إلى أرض

---

[41]الأشهب، محمد – الطيب إبراهيم أحمد الشلحي، صـ 18-19.

[42]خدوري، مجيد – ليبيا الحديثة (ترجمة د. نقولا زيادة)، صـ 35.

[43]الحسناوي،حبيب وداعه – عمر المختار (تحرير د. عقيل البربار)، صـ17-18.

الوطن في يوليو 1946.[44] علماً بأن السيد إدريس دخل برقة أول مرة بعد هجرته الطويلة التي دامت 22 عاماً في يوليو 1944م.[45] وحينما رجع الأمير إدريس من منفاه كان الشيخ الشارف في طليعة من لقيه في مدينة البيضاء،[46] وطلب السيد إدريس منه البقاء معه عسى أن يُحتاج إلى مشورته، ولكن اعتذر الشارف باشا لتقدمه في السن واعتلال صحته.

خلاف الباشا مع الأمير ...

ينقل البعض أن بداية الخلاف بين السيد إدريس والشارف باشا ترجع إلى حقبة بداية العشرينيات، حين قام بعض الوشاة

---

[44] خدوري، مجيد – ليبيا الحديثة (ترجمة د. نقولا زيادة)، صـ 76.

[45] الأشهب، محمد الطيب بن إدريس – برقة العربية صـ 559.

خدوري، مجيد – نفس المصدر صـ 71.

[46] نقل عن البعض عن السيد إدريس رفض مقابلة كل من الشارف الغرياني والشيخ مصطفى الدردفي شيخ زاوية شحات وهذا يتنافى مع أخلاق السيد، وكذلك يتناقض مع القول بأن بعض السادة السنوسية بعد رجوعهم ذهبوا للسلام على الشارف باشا الغرياني.

بالاتصال بالأمير إدريس وأعلموه بأن الشارف الغرياني أصبح له مكانة مرموقة بين الناس وأنه ينوي التآمر أو الالتفاف عليه، فأصدر السيد أمراً بالقبض على الشارف، وتم سجنه في بئر بمدينة إجدابيا، ولكن مجموعة من الوجهاء اتصلوا بالأمير وأكدوا له بأن ما يقوم به الشارف هو من أجل مصلحة الوطن والمواطنين، وأن ما وصله من أخبار هي مكيدة دبرها أعداء المصالح الليبية، فأمر على الفور بإطلاق صراحه، وأعتذر له عن ذلك، وتمت المصالحة، ولكن هذه الحادثة أثرت في مواقف الشارف السياسية.

وهذه الرواية على علتها قد تكررت على مسامعي، فقد ذكر لي بعض آل الكزة أنه حز رحيل السيد أحمد الشريف في أنفس القوم، فاتفقت مجموعة من شيوخ ووجهاء العواقير وعلى رأسهم سليمان رقرق وخليل بومصطفى بوشنيف وعمر الأصفر وآخرون من المغاربة والبراعصة والعبيدات وغيرهم، تغيير القيادة الممثلة في شخص السيد إدريس بعد استيائهم من أدائه وعدم

امتلاكه الحضور والوجاهة التي كان يتمتع بها السيد أحمد، وقرر الجميع على أن يزيحوا السيد إدريس ولا يبقوه حاكماً عليهم، وقالوا: نختار رجل من بيننا وقالوا فلنختار رجل من عيت الكزة.

علم السيد إدريس بالمحاولة الانقلابية وما سيترتب عليها من شق الصفوف، فاعتقل الرجال بما فيهم الشيخ سليمان رقرق، فعلم الشيخ عبد السلام الكزة بذلك وكان حينها في مهمة من قبل السيد إدريس إلى الشريف حسين – شريف مكة – وأقلقه ما فعله السيد بالرجال أن حبسهم في حقفة (كهف)، وحاول بعض الناس التوسط بين السيد والرجال فقال السيد إدريس: يكتبوا لي ورقة يعترفون بجرمهم، وأنا سأطلق سراحهم.

وعندما عُرض الأمر على سليمان رقرق – وإن كان الرجل غير متعلم ولكنه كان يتمتع بذكاء فطري وذهن حاد – فقال الشيخ سليمان: إذا ما كتبتم له ورقة، واعترفتم، ووقعتموها، فسيعرضها على الناس، فيقول له الناس أنت لك الحق في

التصرف بهم، فيسضرب أعناقكم، وأضاف وقال: لا تعترفوا أو توقعوا شيئاً، وزامن ذلك رجوع عبد السلام الكزة من شرقة (المشرق). فقال عبد السلام للسيد إدريس: والله إذا ما أعدمت هؤلاء الرجال ستنقلب عليك برقة، لأنهم علية القوم ورؤوسهم، ولكن اقترح عليك أن يعترفوا أمامك شفهياً وأنت تعفوا عنهم، وبالفعل عرض عبد السلام عليهم ذلك فاعترفوا وعفا السيد عنهم، وبذلك جُنبت برقة فتنة لا يعرف إلا الله تعالى نهايتها.[47]

من هذه الحادثة انفك العواقير من حول السيد إدريس، وعن الجهاد المتمثل في الحركة السنوسية باستثناء قلائل كعبد الحميد العبار الذي بقى مخلصاً للسنوسية في شخص قيادتها الجديدة المتمثلة في السيد إدريس، فعلى سبيل المثال انشق عمر الأصفر، فحدث بينه وبين المحافظية (المجاهدين) ما أدى إلى

---

[47] ويرجع البعض الخلاف إلى معارضتهم للاتفاقية التي ابرمها السيد مع الطليان فابعدوا تباعاً إلى الواحات كجالو والجغبوب..

قتله على أيديهم فيما بعد، وقد سبق أن عمر الأصفر تم نقله من طرف الحكومة الإيطالية إلى الكفرة نتيجة خلافات بينه وبين أبناء العمومة، ولكن تدخل البعض منهم حين طلبوا من الشارف الغرياني التدخل لدى السلطات الإيطالية، وبالفعل قام الشارف الغرياني بالعمل على نقل عمر الأصفر إلى قمينس.

هذا واستمرت بعض بيوتات العواقير في القتال كعيت الكزة والعبار ورقرق في بيت سديدي أما بيت إبراهيم فاستمر منهم عيت اللواطي وحسن متمثلين في عيت النمر والبلعزي والحيص وغيرهم من عيت حسن.

هؤلاء هم بعض من استمر في الجهاد من العواقير بمثابرة حتى 1928م، ومن بعدها بدأت القوة تخور، والإمدادات تنحسر، فضعف الناس، واصبح لا جدوى ولا طائلة من القتال بل أصبحت العملية الجهادية ضرب من الانتحار لا أكثر، فكان أمام الناس خياران لا ثالث لهما إما الهجرة أو التسليم، فمن

كان عنده جهد ومقدرة قرر المواصلة بالهجرة، أما المغلوبين على أمرهم قرروا التسليم ودخلوا المعتقلات.

الكذب والافتراء ...

تاريخ الإيطاليون في ليبيا حافل بالأكاذيب والافتراءات على الأجداد وفي تصانيفهم للتاريخ آنذاك، فزعم بعضهم بأن عثمان العنيزي كانت له باندة أسموها بباندة العواقير، وهذا لم نسمع أحد قد ردده في برقة، حتى الباندات التي مرت ببلاد كانت تعرف بزعمائها وليست قبائلها وهذه دلالة على أنها حالات فردية كباندة عاكف والقريتلي والكردي والزاوي وغيرها، ولكن أسوأ من ذلك كذبهم على الشيخ عمر المختار نفسه، فلقد كتب غراتسياني نفسه ينسب الاستسلام للشيخ عمر المختار لإيطاليا وسلطانها استسلاماً تاماً على حسب ما ذكره في إعلان مزعوم للشيخ الشهيد في قوله لهم:

لا تنادوني بالعاصي (ويقصد عمر المختار)، فإنه لم يسبق لي قط قبل اليوم أن استسلمت للحكومة، بل إنني قاتلتها دائماً لأن ديني يأمرني بذلك. واليوم أستسلم مع كل من معي. ومنذ اليوم يجب أن يرين على برقة السلام المطلق الكامل. وعلى جميعهم أن يطيعوا حكومة إيطاليا الشرعية. تجولوا كما شئتم وحلوا الدوريات وألغوا الحصون لأنها أشياء لم تعد إليها حاجة في برقة، إذ لم تعد هناك في برقة حرب.[48]

الشارف باشا والمعتقلات ....

لقد ثبت بالدليل والوثائق أن الشارف الغرياني لعب دوراً كبيراً في إنقاذ وإخراج الكثير من الناس من المعتقلات، وقد نشرت في هذا البحث بعض من هذه الروايات بأسماء من أخرجوا من المعتقلات، حتى يتسنى للنزر من المثقفين وكثير من العوام الذين

---

[48]ديل بوكا، انجيلوا (ترجمة محمود التائب) – الإيطاليون في ليبيا (الجزء الثاني) صـ 201.

انتابهم شيء من الوهم وقالوا إن الشارف الغرياني هو من أوحى إلى الطليان بفكرة عزل القبائل والأهالي عن المجاهدين في معتقلات تبعد بينهم.[49]

فعلى سبيل المثال كتب الأستاذ عبد الونيس الحاسي: **فلا أعتقد أن أحداً فينا يجهل دوره الخياني (ويقصد الشارف الغرياني) المذكور في عدة مصادر إيطالية، من بينها كتاب "غراتسياني" نفسه (برقة الهادئة). ورغم أن فيلم عمر المختار قد أشار إلى هذا الدور، إلا أن ذلك تم في عجالة، دون توضيح وإبراز للصورة الحقيقية كما كانت على أرض الواقع. ذلك أن الشارف الغرياني، حين وضع نفسه في خدمة الاحتلال الإيطالي، كمستشار للحكومة الإيطالية، كان يعرف – بحكم ليبيّته – أسرار بلاده جيداً، وهو ما كانت الحكومة الإيطالية في مسيس الحاجة إليه، حيث قدم**

---

[49]راجع: هوامش قصة صغيرة "حدث .. في سنوات الزنباع"، لأحمد يوسف عقيلة – أخبار بنغازي – 6 أكتوبر 1998م (6 التمور 1428).

لها في هذا المجال، خدمات "جليلة" لا تحصى، عبر نصائحه وإرشاداته التي مكنتها تدريجياً من إحكام قبضتها على جميع شئون البلاد والعباد في نهاية المطاف...!؟

ولعل أهم وأخطر نصيحة قدمها الشارف الغرياني للاستعمار الإيطالي، هو نصيحته له بإقامة المعتقلات في برقة. ومازلت أتذكر المجاهد "عطية بوحامد الشريف" رحمه الله، وهو يتحدث للحاضرين بقوله: (قال لهم الغرياني، هذي قرميّة، إن كان تبوها تموت قطّعوا عروقها، وعروقها هن النواجع).

والمعنى كما هو واضح، أن المجاهدين أرومة، إذا أردتم موتها والقضاء عليها، فاقطعوا جذورها التي تمدها بالغذاء، وهي نجوع القبائل المختلفة، والمنتشرة في جميع بوادي برقة. كانت الفكرة جهنمية، سرعان ما تلقفتها الحكومة الإيطالية، ثم شرعت دونما تأخير في تنفيذها، وكان ذلك بداية النهاية للمقاومة، إذ انتصبت معتقلات الإبادة

الجماعية في جميع أنحاء برقة، والتي تعرف لدى سكانها باسم (ضم النواجع، أو ضمّة النواجع).

وبعد أسر عمر المختار، وإحضاره من سوسة بحراً إلى سجن بنغازي المركزي، تمهيداً لإجراء تلك المحاكمة الشكلية السريعة التي قضت بإعدامه، أرسل الإيطاليون الشارف الغرياني إليه في سجنه، حتى قبل أن يستدعيه غراتسياني لمقابلته في اليوم التالي. ومن غير المعروف حتى الآن على وجه اليقين، الغرض الحقيقي من مهمة الغرياني لدى المختار في سجنه. غير أن أرجح الأقوال والتكهنات تقول بمحاولة تحقيق الهدفين التاليين، أو تحقيق أحدهما على أقل تقدير، وهما:

– إصدار تعليمات من قبل عمر المختار للمجاهدين، بإنهاء القتال والاستسلام للقوات الإيطالية.

– طلب الرحمة من غراتسياني أثناء مقابلته في اليوم التالي بالإبقاء على حياته، من أجل إذلاله.

ولكن الغرياني عاد صفر اليدين خائباً، بعد أن قابله عمر المختار بشموخ وازدراء، وقال له باقتضاب: (لم أطلب مقابلة أحد، ولن أطلب، ولا حاجة لأحد عندي، ولا حاجة لي عند أحد). [50]

براءة الشارف من تهمة المعتقلات ...

القول (بأن الشارف الغرياني كان وراء فكرة المعتقلات) يخلو من الدقة والحقيقة معاً، فرأيت الرجوع إلى ما كتبه صديقنا الدكتور يوسف البرغثي في دراسته الميدانية عن تلك المعتقلات البشعة في رسالة الماجستير بعنوان "**المعتقلات الفاشستية بليبيا**" بإشراف الدكتور إدريس الحرير سنة 1983م، ومن ثم راجعه الدكتور صلاح الدين السوري ونشره مركز دراسات

[50] الحاسي، عبد الونيس محمود، الشتائم لن تغيّر الحقائق...، موقع أخبار ليبيا الإلكتروني بتاريخ 25 يوليو 2005م.

جهاد الليبيين سنة 1985.[51] وقد تحدثت مع الدكتور يوسف في الشأن ذاته،[52] ولا أجد غضاضة في القول بأن هؤلاء هم المراجع في هذا الشأن، ولا تعلو عليهم سلطة في هذا المجال، فيقول الدكتور يوسف فاصلاً في هذا الموضوع:

لا أريد أن أبرئ ساحة ذلك الرجل [الشارف الغرياني] **المثقل بتهمة خيانة الوطن إلا أن عملية تطبيق المعتقلات في منطقة الجبل الأخضر جاءت بناء على تعليمات موسليني الذي أعطى كافة الصلاحيات للجنرال غراتسياني لتحقيق (السلام) الذي تريده إيطاليا.**[53]

---

[51] البرغثي، يوسف سالم – المعتقلات الفاشستية بليبيا صـ 13-15.

[52] تناقشت مع الدكتور يوسف البرغثي (مؤرخ وأكاديمي له أعمال كثيرة خاصة تلك الميدانية المهمة جدا) في هذا الموضوع في دار الكتب الوطنية ببنغازي بتاريخ 2 أغسطس 2006م.

[53] البرغثي، يوسف سالم – عمر المختار (تحرير د. عقيل البربار)، صـ 116.

هذا وقد استند الدكتور يوسف البرغثي إلى ما وصل إليه الباحث الإيطالي الدكتور جورجو روتشا في الوثائق التي جمعها عن تلك الجريمة ولخصها في أن صاحب الفكرة هو بادليو الذي كان حاكماً لليبيا في مراسلاته السرية مع وزير المستعمرات دي بونو ومن ثم نفذها بوحشية السفاح غراتسياني.[54]

وهذا يذكرني بما أخبرني به الأستاذ عبد المولى دغمان – رحمة الله تعالى عليه – مستنكراً ما يبثه بعضهم حول هذا الرجل من زور وبهتان، إذ بلغ ببعضهم أن افترى على الشيخ الشارف بأنه أفتى بعدم جواز إعطاء الزكاة لعمر المختار لأنها ليست فرضاً ..؟ ويستطرد معلقاً في اشمئزاز: هل يعقل أن يقول شيخ دين

---

[54] البرغثي، يوسف سالم – المعتقلات الفاشستية بليبيا صـ 19.

وللأسف يعود الدكتور يوسف البرغثي ويقع في نفس التعميم الذي ساد بين العامة عندما يلوح بالتهمة للشيخ الشارف الغرياني وبدون تمحيص بأنه هو من أشار على الطليان بعزل الأهالي مناقضاً نفسه في بحثه الأول عن المعتقلات الفاشستية.

راجع: البرغثي، يوسف سالم – حركة المقاومة الوطنية بالجبل الأخضر 1927-1932 صـ 102.

بذلك ..! أي إبطال أحد أركان الإسلام الخمسة وإنكار معلوم من الدين بالضرورة.

ولعل ما نقله الدكتور محمد سعيد القشاط في كتابه عن الشيخ المفتي أبو الاسعاد ينطبق عليه نفس الاستغراب ويثير لدي الشكوك في كون أن رجل دين يفتي بما هو منافٍ للإسلام وتعاليمه، فكتب الدكتور القشاط:

أبو الاسعاد العالم[55] هو أحد علماء طرابلس المدينة ووجهائها، كان فقيهاً دينياً، عينته إيطاليا مفتي لليبيا، فأفتى بالجهاد لصالح الطليان، وأن محاربة الطليان هي عصيان لله، لأن الإيطاليين (أولو الأمر) !! وأفتى للمتجندين مع الطليان أن يصح لهم الإفطار في رمضان، لأنهم في عداد المجاهدين،

[55] هو فضيلة الشيخ محمد أبو الاسعاد العالم الذي لعب دوراً كبيراً في وحدة ليبيا واستقلالها، ترأس اجتماعات الجمعية الوطنية التأسيسية التي انبثق عنها دستور ليبيا في 7 أكتوبر 1951م.

وعندما زار موسوليني ليبيا كان الشيخ أبو الاسعاد أحد أفراد اللجنة الخمسة المكلفين باستقبال موسوليني.

وأمر أن تفرش الشوارع بالبسط، احتفاء بزيارة الرجل العظيم حامي حمى المسلمين !! وقد فعل مثله الشيخ عبد الحميد الديباني في بنغازي.

ولقد خدم الشيخ أبو الاسعاد إيطاليا بإخلاص طيلة بقائها بأرض الوطن ولما رحلت إيطاليا أبقته بريطانيا مفتياً لليبيا، ولما جعلت بريطانيا إدريس السنوسي ملكاً على ليبيا أبقاه مفتي المملكة إلى أن توفي بمنطقة سكناه (سوق الجمعة). [56]

الشاعر بوحويش والباشا ....

رجوعاً إلى مسألة المعتقلات .. فكم سُعدت وزدت يقيناً بما أنا خائض فيه عندما زودني الباحث الجاد الأستاذ سالم الكبتي

---

[56] القشاط، محمد سعيد – معارك الدفاع عن الجبل الغربي، صـ 231.

برسالة وهي عبارة عن قصيدة من شاعر المعتقلات الفقيه رجب بوحويش نفسه نظمها إطراءً وثناءً في الشارف باشا، وبوحويش معروف بقصيدته عن معتقل العقيلة التي أصبحت وثيقة تاريخية هامة بقدر ما كانت ملحمة جهادية غاية في الروعة من حيث مواطن التشابه في المعنى والإبداع والتصوير البلاغي والترصيع والاستطراد ونبراساً لمرثيات الشهداء والمعذبين والمبتلون ولكل من أراد أن يتعرف على وحشية تلك المعتقلات وما عاناه بوحويش نفسه وأمثاله من الليبيين في تلك الظروف القاسية حين صرخ بها مدوية وقال:

ما بي مرض غير دار العقيله

وحبس القبيلة

وبعد الجبا من بلاد الوصيلة[57]

---

[57]راجع: المالكي، حسين نصيب – شاعر معتقل العقيلة رجب بوحويش (1992م).

بوحويش لم يكن شخصاً عادياً بل من خواص السنوسية الذين جمعوا فضيلة العلم والجهاد ضد فرنسا في تشاد وإيطاليا في ليبيا، وعمل كمأذون شرعي، وفض المنازعات بين القبائل متكئاً على تفقهه في الدين وحفظه للقرآن الكريم وإلمامه بأصول الفقه حتى انه لقب بالفقيه،[58] وهاهو يقف وقفة رجل جديرة بالذكر مع الشارف باشا ويكتب إليه رسالة لا ندري تحديداً سببها ولكن ما نم عنها هو الشكر والعرفان لجميل ومعروف يبدو أن الشارف باشا قد أسداه لبوحويش، فرأى الأخير أن يكتب إليه ويشكره على حسن صنيعه ويذهب أكثر من ذلك ويقرض قصيدة شكر وثناء فيه فكتب:

إلى حضرة الأجل الفاضل الأمجد الكامل سيدي الشارف باشا أدام الله مجده وزاده عزاً ورفعة .. آمين

---

[58] راجع: المالكي، حسين نصيب – شاعر معتقل العقيلة رجب بوحويش صـ 13.

السلام عليكم سيدي ورحمة الله مع البركة إن سألتم عنا طيبين ما نسألوا إلا عنكم وعن المرضية أحوالكم وبعد ...
فحين توجهنا من عندكم في الصيف وقدمنا لوطننا سألوني بعض ناس وقالوا ايش دار معك باشتك فرجعت لهم الجواب وقلت لهم حجايج قلايل في حقكم وكل شي ياسيدي ولا تقول عنده طمع ثاني والحال انني والله ما نعوزكم إلا طيبين ولا خص منكم خير ولا ننسى لكم فضل ما دمت حيا .. والجواب قلت لهم:[59]

عطا باشتي خلّص اديوني

ازاد عا الظيره اكسوت الواشوين

ازاد عا التظهيره

وامعاها لوازم ما انوب الميره

---

[59] مصدر قصيدة بوحويش هو الأستاذ سالم الكبتي وقام بتحقيقها الشاعر السيد راشد الزبير بمساعدة الشاعر الكبير حسن السوسي .. لهم جميعاً جزيل الشكر على تعاونهم.

ان صاحبت لا تصحب امفات الخيره

حتى لوجها هو خير ما الذانون

وان كان قلت كذبه شوف صحبت غيره

كيف بو عزيزه كيف عيت الهوني

امعا بشير مازانوا انسيو خيره

سلاكه امعاهم بالضعيف الدوني

عطاه ازان معايا

جبر ابخاطري جا فوق ما التمناي

والجملت الي كانوا اشيوخ زوايا

ما من مصالح دارهن دكنوني

اوضنوت عمامه رافدين هناتي

غناهم ابخل ايده على الرسيوني

وإلى آخر القصيدة ولكن ما استوقفني هو قول بوحويش في الشارف باشا عندما قال في قصيدته:

ما من مصالح دارهن دكنوين

أي كم من مصالح وحوائج قضاها في سر لسببين لا أكثر. أولاهما: ابتغاء مرضاة الله تعالى والتعاون على قضاء حوائج الناس في كتمان، والثانية هي اتقاء شر العدو حتى لا يُكشف أمره وبالتالي ما يترتب عليه من بطش به وانقطاع المعونة لمن هو في حاجة ماسة إليها كما سنرى تباعاً في هذه الدراسة.

سببية التعامل مع الطليان ...

ولكن دعونا ننظر في سببية تعامل بعض أجدادنا مع الطليان. وأستطيع أن ألخصها في سببين رئيسيين هما: الفرقة بين الإخوة والكوارث البيئية. فقد شاعت وسادت الفرقة بين الليبيين ولعل أشهرها تحارب الإخوة في الجبل الغربي التي تناصر فيها الزنتان والرجبان ضد الجبالية (الأمازيغ)،[60] التي راح ضحيتها أكثر من

[60] الزاوي، طاهر أحمد – جهاد الأبطال في طرابلس الغرب صـ 404-411.

260 قتيلا،[61] الأمر الذي اضطر فيه يوسف خربيش إلى الانضمام إلى صف العدو كأحد قادة الباندة[62] حفاظاً على أولئك المظلومين الذين أبعدوا من ديارهم في جبل نفوسة ليذوقوا ويلات الغربة في زوارة.

وتلك المحنة كانت عبارة عن إنفلات أمني بين الأهالي من جهة وقياداتهم .. تداعت الأمور فيها نتيجة تراكمات وحساسيات بين الجيران توجت بقتل بقرة لشخص من جادو يدعى بولسان، اجتازت بقرته – بعفوية – الحد القبلي لتدخل أرضاً لجماعة من الرجبان، الذين عبروا عن امتعاضهم من الجيران بقتلهم لتلك البقرة المسكينة، مما أثار حفيظة جماعة جادو،

---

[61] الزاوي، طاهر أحمد – معجم البلدان الليبية ص 200.

[62] تأسست أول فرقة باندة رسمياً عام 1912م في غريان، وتتكون الباندة في مجملها من المهاريستي (المهاريون الذين يركبون الإبل)، والسفاري (الفرسان ويعرفون عند أهلنا بالسواري)، وفنتاريا وهم المشاة.

راجع:

L' Italia in Africa L'Opera Dell' Esercito 1885-1843, Tomo 1, Ordinamento E Reclutamento, Testo Di Massimo Adolfo Vitale. Istituto Poligraftico Dello Stato-MCMLX.

وهكذا تفاقم الأمر لدرجة الجنون .. ولكن للأمانة، لم يكن المبعث عرقي أو مذهبي أو حتى قبلي، ولكنه محصلة سياسات استعمارية في المنطقة، تمثلت في نفوذ الرجال الأقوياء كمحمد فكيني من الرجبان، أو علي الشنطة من الزنتان، ليدخل على الخط يوسف خربيش من جادو.

ولكن العجيب في الأمر أن بعض العرب من الرحيبات والمشاشية وقفوا مع الجبالية، وأن بعض الجبالية – كبعض شقارنة يفرن – وقفوا مع العرب، ليدخل خليفة بن عسكر من نالوت على الخط، وهو من زعماء الجبالية المجاهدين، الذي نال الشهادة على يد السفاح غراتسياني، ليؤدب قرية الجماري، وهي من أحواز جادو. ولعل مرد ذلك كله غياب قيادة رصينة وحكيمة كالشيخ سليمان باشا الباروني، الذي ترك بغيابه أثراً كبيراً في الجبل، خاصة بين الجبالية ..

ولعل لتلك المحنة التي مر بها أهلنا في الجبل الأثر الأكبر التي جعلت سعيد الباروني – أن صحت الرواية – أن يقرض قصيدة

يمدح فيها غراتسياني عند وصوله بلدة يفرن منتصراً على المجاهدين، وقد بالغ في مدح السفاح حتى جعله من المبشرين بالجنة (؟؟) وقد لامه الشيخ سيلمان الباروني على تلك المبالغة في رسالة أرسلها له من المهجر على حسب ما ذكر الدكتور محمد سعيد القشاط.[63] وكذلك احتراب الزنتان وأولاد بوسيف.[64]

عاكف امسيك الغرياني ...

كذلك ظاهرة عاكف امسيك فيما عُرف في برقة بـ "باندة عاكف الغرياني" التي عرفت بقسوتها في تعاملها مع الأهالي بحثاً عن الأسلحة ومن يعين المجاهدين أو الحلفاء في الحرب العالمية الثانية الذين استطاعوا من طرد الإيطاليين من برقة في السنوات

---

[63] القشاط، محمد سعيد – معارك الدفاع عن الجبل الغربي، ص 231.

[64] الزاوي، طاهر أحمد – معجم البلدان الليبية ص 80، 123، 142، 338، 339، 346، 931..

الأولى من الحرب العالمية الثانية، وما حدث لاحقاً كتب في هذا الصدد الأستاذ عبد الونيس الحاسي بعد:

تطهير برقة من الإيطاليين الذين بقوا وعجز الجيش الإيطالي المهزوم عن حمايتهم أو نقلهم معه، حيث قام أهل برقة بالثأر منهم لأنفسهم ولشهدائهم، وانتقموا من أعدائهم وجلاديهم الغزاة المحتلين، واستعادوا أراضيهم وأملاكهم التي تم الاستيلاء عليها منهم بالقوة، وانتهزوا فرصة وجود الجيش البريطاني الذي لم يتدخل في شئون حياتهم اليومية، وحاولوا إعادة تنظيم أمورهم، وإدارتها من جديد، ولكن وصول القوات الألمانية، أفسد كل شيء، وضيّع عليهم كل شيء.

بعد أن قام رومل بهجومه المضاد الناجح، وتمكنه من طرد القوات البريطانية إلى الحدود المصرية، وأعيدت برقة إلى سابق عهدها في حظيرة الاحتلال، ترسف في قيوده من جديد. بدأ الإيطاليون يفكرون في كيفية الانتقام منها ومن أهلها، وهداهم تفكيرهم الاستعانة بالكتب القديمة التي تم

تأليفها قبل غزو ليبيا، عن جذور التركيبة الاجتماعية والقبلية للمجتمع الليبي، وما تعتريه من عيوب وثغرات ونقاط ضعف، حتى يتم الانتقام هذه المرة، من الليبيين بأيدي الليبيين أنفسهم...؟!

وهكذا تم إعداد فرقة مجهزة ومسلحة من المنطقة الغربية، ووضعوا على رأس قيادتها "عاكف امسيك الغرياني"، الذي أظهر استعداده لأداء المهمة، بل وتنفيذها بالصورة المطلوبة، لدرجة عرفت معها تلك الفرقة باسمه (باندة عاكف)، وذاعت شهرتها السيئة بهذا الاسم، كما عرفت أيضاً باسم (فرقة بوحبلة)، والحبلة بالعامية تعنى العصا الغليظة التي كانوا يضربون بها ضحاياهم، عندما لا تكون ثمة حاجة لاستعمال الأسلحة النارية...؟!

كان ظاهرها – أي باندة عاكف – البحث عن الأسلحة التي صارت في حوزة أهل برقة من الجيش البريطاني، وكان باطنها العذاب، أو الانتقام منهم، وعقاباً لهم على ما فعلوه

بالإيطاليين في فترة انسحابهم. ولقد منحها الإيطاليون كسلطة احتلال، تفويضاً مطلقاً في ما تفعله، دون رادع من قانون أو حساب أو عقاب، فارتكبت أعمالاً وحشية يندى لها الجبين، من تدنيس للحرمات والأعراض، ودوس للكرامات، وسلب ونهب وقتل واعتقال، وابتزاز للأموال عن طريق التلويح بتهمة إخفاء أسلحة، أو التهديد بالاتهام بالعمالة للإنجليز، أو أية تهمة أخرى. وظلت هكذا تعيث فساداً في برقة، من أقصاها إلى أقصاها، دون وازع من ضمير أو عقيدة أو وطنية، لدرجة أن همجية بعضهم فاقت وحشية الإيطاليين أنفسهم. إلى أن حقق الجيش الثامن البريطاني بقيادة "مونتغومري" انتصاره الكبير في معركة العلمين، في نوفمبر 1942م، واضطر رومل إلى الانسحاب بفيلقه الأفريقي الممزق، والتقهقر غرباً على نحو متواصل، تحت ضغط الجيش الثامن، دون أن يتمكن حتى من التقاط أنفاسه، حتى وصل إلى تونس ثم الجزائر، اللتين تحكمهما

آنذاك حكومة "فيشي" الفرنسية التي يرأسها الجنرال "بيتان"، والمتعاونة مع الاحتلال الألماني لفرنسا، ولكن حين نزل الجنرال "باتون" الأمريكي في "كازابلانكا" أو الدار البيضاء بالمغرب، بالجيش الثالث الأمريكي والمجهز بأسلحة حديثة، ووجد رومل نفسه بين فكي كماشة شرقاً وغرباً، لم يجد أمامه من حل آخر أو طوق للنجاة، سوى أن يقذف بما تبقى من فيلقه الأفريقي المحطم إلى البحر – رغم تفوق الأسطول البريطاني – عائداً بهم إلى ألمانيا...!؟. وما حصل بعد ذلك قصة أخرى.

وهكذا سقطت برقة وطرابلس الغرب في قبضة الاحتلال العسكري البريطاني، مع نهاية عام 1942م، أما فزان فقد قام باحتلالها في نفس الفترة الجنرال "لكليرك" الفرنسي زاحفاً إليها من تشاد المجاورة، وهو تابع لقوات فرنسا الحرة، بقيادة الجنرال "ديغول".

أعني... أن الإيطاليين قد هربوا، ووصلوا إلى إيطاليا، حتى قبل أن تدخل مقدمة الجيش الثامن مدينة طرابلس، وتركوا عملاءهم يواجهون مصيرهم البائس الذي يستحقونه دونما اكتراث، كما هي عادة الاستعمار دائماً أن يفعل بعملائه...؟!

ومن بين هؤلاء العملاء، كان عاكف امسيك الغرياني، الذي التقطته المخابرات البريطانية مع عصاته التي يهش بها على غنمه، عندما كان متخفياً في زي راعٍ لقطيع من الماعز، ثم أودعته سجن الحصان الأبيض، قبل أن يتحول إلى لونه الأسود، بثمانية وعشرين عاماً على وجه الدقة والتحديد. وقد عاش معظم سنوات سجنه بالقسم العاشر الذي يقع في منتصف السجن، بجوار المشنقة والكنيسة الصغيرة التي تحولت إلى مسجد.

وظل هناك، إلى فترة السنوات الأولى من بداية الاستقلال، دون محاكمة، رأفة بالآخرين وبعوائلهم، لأن محاكمته لو عقدت، لجرّت إليها الكثيرين. وحين مرض مرضه الأخير، نقل على إثره إلى مستشفى طرابلس المركزي، حيث مات هناك بعد عدة أيام، غير مأسوف عليه إلا من أمثاله.[65]

لقد عجبت كل العجب عندما علمت أن عاكف امسيك وخليفة خالد كانا من جملة الضباط في مقدمة صفوف قوات السيد أحمد الشريف، وحضر عاكف المعارك الأولى في المنطقة الشرقية ضد الطليان ولكن نجهل كلياً ما جعله ينقلب على عقبه وينتقل من نصير لإخوته المجاهدين إلى عدواً لدوداً لهم حتى أن ألقى الإنجليز القبض عليه متلبساً بزي راعي أغنام ويقاد إلى سجن ومن ثم يموت عليلاً في أحد مستشفيات مدينة طرابلس بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية.

---

[65] الحاسي، عبد الونيس محمود، الشتائم لن تغيّر الحقائق...، موقع أخبار ليبيا الإلكتروني بتاريخ 25 يوليو 2005م.

وبعد ما سمعت وقرأت ما كُتب عن عاكف امسيك قررت أن استكشف شخصية هذا الرجل وتاريخه وما الذي أدى به لينتقل من معسكر إلى أخر واتجهت نحو غريان وتحديداً وادي القواسم وإلى بيته بالمراح، وهنالك علمت أن والد عاكف كان شيخاً واسمه الشيخ امسيك ومعروف في منطقة وادي القواسم وخاصة منطقة السقايف بغريان بأنه من الأساتذة الشيوخ الذين يؤدبون ويدرسون الصبية القرآن الكريم وتعاليم الإسلام وقد نجح مع أبنائه في ذلك الذين تعلموا وتخرجوا وهم على التوالي: علي فائق، محمد علي، ومن ثم محمد عاكف.

فعلي فائق الأخ الأكبر لعاكف سقط شهيداً في معركة المرقب دفاعاً على الوطن (1912-11م) وقد وجد معقل الأرجل وقد انكسرت يده ولكنه استمر في القتال إلى أخر رمق. أما محمد علي فقد ذهب هو وأخوه الأصغر منه عاكف إلى تركيا فدرس محمد علي طب العيون وتخرج منه ولكنه لم يستطيع الرجوع إلى ليبيا لاحتلال الطليان لها فذهب وعمل عند شريف

مكة بالحجاز ومن ثم رجع إلى طرابلس الغرب وقد عرف "**كطبيب إنسان ومواطن شريف، وكثيراً ما يعالج الفقراء مجاناً ولا يستغل أي وقت من أوقات عمله أو خبرته في كسب أو مصلحة ذاتية ... رجلاً مستقيماً متديناً لا يضيع وقته سدى ... ولا يمر يوم إلا ويقرأ شيئاً من سور القرآن الكريم" وقد شهد له الحاج الهادي المشيرقي الذي عرفه عن قرب بأن الدكتور محمد امسيك رجل له مواقف وطنية صادقة**".[66]

أما عاكف فقد درس العلوم العسكرية في تركيا مما زادته شدة وصلابة فاصبح رجلاً شديداً ومدرباً تدريباً راقياً يتمتع بلياقة بدنية عالية إلى جانب شجاعته المفرطة، حتى قيل انه يجيد ركوب الخيل والقيام بحركات بهلوانية وهو فوقها والقفز من عليها وهي تجري كعادة الفرسان العرب، ومن ثم رجع إلى أرض الوطن

---

[66] هذا اقتباس (2006/9/25م) من مقالة بعنوان **شخصية الأسبوع/ الدكتور محمد علي امسيك (أول طبيب ليبي متخصص في أمراض العيون)** على موقع المؤسسة العامة الإعلام .. لم أجد عليها اسم المؤلف أو تاريخ نشرها.

إلى المنطقة الشرقية والتحق بالضباط الأتراك كمصطفى كمال اتاتورك تحت إمرة السيد أحمد الشريف وحضر المشاهد الأولى في حرب برقة الشرقية.

قفل عاكف امسيك راجعاً إلى غريان وذاع صيته بين الناس ولكن الانقسامات الداخلية في الجبل أدت إلى انصرافه لما انصرف إليه، ويقول بعض أهل غريان أن ما زاد في حدته هو ما قام به وجهاء القوم بغريان حين اجتمعوا بقصر اصبيح بالكشالفة وبيتوا النية للقضاء على كل من المبروك القعود وعاكف امسيك، ونظراً للياقة عاكف امسيك البدنية العالية استطاع أن يقفز من القصر – وقد رأيت بأم عيني علوه وخطورة ارتفاع ذاك المكان الواقع بين تغرنه وبوزيان – ومن ثم يتدحرج إلى الأسفل الجبل وينجو بنفسه حتى أن إحدى أخواته عندما رأته دهشت للطع ولطخ الدم التي غطت جسمه كاملاً.

وينقل الشيخ السنوسي الغزالي في مذكراته[67] بأن عاكف حاول التعامل مع الإنجليز ضد الطليان، وقد نقل الدكتور القشاط في كتابه عن "معارك الدفاع عن الجبل الغربي" أن عاكف علم بأن:

مجموعة من الضباط الإنجليز يختبئون عند الهادي بوغالية في قماطة، وعرف بحنكته السياسية والعسكرية أن إيطاليا منكسرة في ليبيا، وأراد أن يضع يداً مع الإنجليز، فأرسل إلى الهادي رسالة يشعره فيها بأن الطليان علموا بضيوفه وعليه أخذ الحذر ... فعلم الطليان بكتاب عاكف فقبضوا عليه، وألبسوه خرقاً، وحلقوا شاربه وطافوا به غريان، ولكن الإنجليز كانوا حينذاك على مشارف غريان فتركه الإيطاليون،

---

[67]مقتطف من مخطوط مذكرات الشيخ السنوسي الغزالي بعنوان" حكايتي في قلب ما جرى " التي لم تنشر بعد.

ولما وصل أخبرهم بوغالية برسالة عاكف لهم فاحترمه الإنجليز ...[68]

وهذا يؤكد أن الرجل لم يكن عديم الضمير خائناً بالمطلق كما يسوق البعض، ولم يكن عنده الولاء المطلق لسلطة بعينها بقدر ما هو وفيّ لمهنته العسكرية، ولكن سجنه الإنجليز ولم يقدم للمحاكمة حتى وفاته قبل الاستقلال عام 1947م عن عمر ناهز الستين.[69]

غريان عرين الأبطال أم الخونة ...

---

[68]القشاط، محمد سعيد – معارك الدفاع عن الجبل الغربي، ص 363-364.

[69]لقد أكد لي صحة هذه المعلومات أسرته وأقاربه وبعض من وجهاء غريان الكرام عندما زرت المنطقة بتاريخ 2006/9/7م.

والملاحظ أن تاريخ غريان يحتاج إلى إعادة نظر وعناية حيث ان الغراينة عوملوا جميعاً بطريقة لم تكن منصفة حتى أن البعض يعايرهم بالقول:

غريان خوان

ووداي القواسم بزايد

وتلصق بهم سمة الخيانة وتنسب إليهم كل رذيلة وللعلم أن بيت الشعر هذا قيل من قبل أحد رجال قبيلة المحاميد بقيادة غومة في حربهم الشهيرة ضد الترك، ولم تكن إبان حربنا ضد المستعمر الإيطالي كما يحلو للبعض بإهانة أهل غريان به، بل حتى أن البعض قال بأن هذا قيل من قبل الشيخ عبد السلام الأسمر عندما خرج من غريان مع أنه أُستقبل من قبل قبيلتي أولاد

سيدي الساعدي (السواعدية) وأولاد بوسلامة أحسن استقبال في منطقة القواسم بغريان.[70]

وللذكرى فقط أن جريدة كورييرى دى تريبولى الإيطالية التي تصدر في طرابلس كتبت:

لقد اختفت من المسرح السياسي الطرابلسي بزوال صورة الهادي كعبار إحدى العناصر الرئيسية التي تشكل خيوط الثورة الدامية التي وجدت نهايتها على سفوح الجبل بالهزيمة التامة لأولئك المسلحين الذين وقفوا ضد سيادة سلطة الحكومة الإيطالية ... [71]

---

[70]البرموني، كريم الدين – تنقيح روضة الأزهار في مناقب سيدي عبد السلام الأسمر، صـ 112.

ومن القبائل التي أساءت إليه إساءة بالغة كما ذكرها البرموني قبيلتي الأحامد وأولاد غيث الذين دعا عليهم الشيخ بالهلاك إلا من تبعه منهم.

أيضاً راجع: نجم، فرج عبد العزيز – القبيلة والإسلام والدولة في ليبيا، صـ 216.

[71]بتاريخ 8 يونيو 1923م.

ولمن نسي أن من سفوح غريان خرج رجال صناديد كآل كعبار وبورشان ورخيص ومحمد توفيق الغرياني وغيرهم، وهم كلهم فخر بهذا الجبل الأشم كما قال الشهيد الهادي كعبار:

أنا غرياني، وبلدي غريان، وأهلي غريان، فأنا لا أترك غريان فليصبني ما يصيب غريان.[72]

الفتن والكوارث ...

وكثر الابتلاء والفتن بين الآباء والأجداد كفتنة رمضان السويحلي والسنوسية، والاقتتال الدامي بين ورفلة ومصراتة التي انتهت بقتل رمضان السويحلي ظامئاً ... وغير ذلك من الاقتتال الداخلي الذي عجل في انهيار الجهة الغربية أسرع من تلك التي في الشرق. وعلى الرغم من أن جبهة برقة وفزان كانتا شبه متماسكتين، ومرجع ذلك إلى وحدة القيادة والهدف، فإن

---

[72] الطوير، محمد أمحمد، فرحات الزاوي صـ 131.

راجع: شريط رقم 51/2 مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخي.

برقة عصفت بها كوارث بيئية رهيبة من جدب ومجاعة، وعصابات استغلت الفراغ الأمني فعاثت في الأرض فسادا،[73] وآخرها المعتقلات التي قضت تقريباً على خطوط مد المقاومة، الأمر الذي اضطر معه بعض الأعيان كالشارف باشا الغرياني وعلي باشا العبيدي وحسين باشا بسيكري وعمر باشا الكيخيا وغيرهم للتدخل لإنقاذ ما يمكن إنقاذه.[74] فقد وصل حال الليبيين إلى ما يدمي القلب، وبلغ الجوع بهم مبلغه، حتى إن أماً قد أكلت فلذة كبدها بعد مماتها في إجدابيا التي كانت تغص شوارعها بالموتى ولا تجد من يواري تلك الأشلاء المتعفنة الثرى[75] ... بل اليأس والقنوط كادا أن يتسربا إلى قلب السيد أحمد الشريف لولا عقيدة الرجل الراسخة عندما اشتد الكرب

---

[73]هويدي، مصطفى علي – الحركة الوطنية في شرق ليبيا خلال الحرب العالمية الأولى صـ 107-108.

[74]العيساوي، محمد الأخضر – رفع الستار عما جاء في كتاب عمر المختار صـ 74.

[75]العيساوي، محمد الأخضر – رفع الستار عما جاء في كتاب عمر المختار صـ 19-20.

شكري، محمد فؤاد – السنوسية دين ودولة صـ 282-283.

به وبرجاله، ولكن وصلت المجاعة في برقة إلى حالة مستعصية،[76] ووصل الحال بالمجاهدين من أتباع السيد أحمد الشريف بعدما رجعوا من حربهم في مصر جياعاً وفي احتياج لا مثيل له، فقد يمر اليوم الكامل دون أن يذوق الرجل منهم أي شيء، فكان يسقط الرجل مغشياً عليه من الجوع، مما أدّى إلى تساقط عشرات الموتى، أو كما يصف عبد المالك بن عبد القادر بن علي سكرتير السيد أحمد الشريف البلاء الذي كاد أن يفتك بهم ويمحو أثرهم.[77]

المعتقلات وشهداء آل الكزة ...

لم يصل البلاء إلى العُزل الأبرياء فقط بل الأبطال المجاهدين، حتى أن ظالماً لنفسه وشى بالمجاهدين الأخوين إبراهيم والمبروك

---

[76]هويدي، مصطفى علي – الحركة الوطنية في شرق ليبيا، صـ 108.

[77]بن علي، عبد المالك بن عبد القادر – الفوائد الجلية في تاريخ العائلة السنوسية (القسم الثاني)، صـ 47.

محجوب بوخزيم من عائلة بوخريص الكزة، فقبضت عليهما القوات الإيطالية وهما في غفلة من أمرهما وساقتهما إلى معتقل الفناء في العقيلة، وشاهدا ما تشيب له الولدان من ذل ومهانة وموت بطئ، وكيف كان الجلاوزة من الطليان وأعوانهم من الليبيين الذين وصفتهم إحدى البدويات بقولها لهم:

حتى اللي مو لباس الكاكي   هابا فينا يا ما دار[78]

وكيف كان يذل المرء ويجلد بل ويقتل من أجل لقمة الأصل فيها ألا تسد رمقه بل تبطئ موته القادم لا محال، فعندما شاهدا تلك الإهانة تلو الإهانة من تلك الحبيبات من القمح أو الشعير رفضا أن يتجرعا السم من كأس الموت أكثر من مرة على أيدي الطليان الظلمة، فقفلا راجعين إلى خيمتهما وأقسما إلا يذوقا شيئاً حتى يخرجا من تلك الخيمة إما إلى حريتهما أو

---

[78] والقصد هنا أن بعض المجندين الليبيين الذين كانوا يعملون في خدمة الإيطاليين في المعتقلات اتسمت تصرفات بعضهم بالوحشية حتى فاقت في وحشيتها أعمال جنود الطليان الذين يلبسون الملابس ذات اللون الكاكي (بني).

قبريهما، وبالفعل استندا إلى جابر البيت (العمود الذي يتوسط الخيمة) وجلسا ينتظرا، فحز في نفس إحدى نزلاء المعتقل من العجائز الليبية ما رأته من عفة من هذين البطلين، فجاءتهما عجوز من بيت إبراهيم في العواقير وقدمت لهما ما تيسر من جودها فقال لها يا أماه: **نحن فات فينا الفايت**، وجلسا صابرين محتسبين حتى توفاهما الله تعالى من الجوع والعطش في تلك الخيمة وما بدلا تبديلا، وقبل أن يذهبا بعثا إلى المجاهد سعيد ابن أخيهما علي محجوب الذي كان طليقاً واخبراه بما فعلت وشاية ذلك الظالم لنفسه بهما وأن لا ينسى أن يثأر لهما حتى يكون عبرة لغيره، وما هي إلا برهة من الزمن حتى تمكن المجاهد سعيد علي الكزة من صرع ذلك الرجل قتيلاً ليسدل الستار على مطلب عائلته وبلائهم ويمتد البلاء إلى عائلة أخرى.

لم تكن المعتقلات فقط للنيل من المجاهدين وعائلاتهم وكسر عزيمتهم في الجهاد والتحدي بل قصدت لمن تكتب له الحياة أن

يفسد أخلاقياً، فقد أخبرني البعض نقلاً عن من عاصروا وعاشوا تلك المحنة بأن خيام المعتقلين كانت متراصة ومتلاصقة بعضها ببعض حتى أن الخيمة الواحدة لم تكن مستقلة بأوتادها بل تربط الخيمة بأختها ولا تترك مجال بين الاثنين مما كشف عورات الناس وحرمهم شيء من الخصوصية التي يحتاج المرء في قضاء حاجاته في حياء. وهذه كانت مقصودة وخاصة أن المعتقل ضج بكثير من النساء اللاتي فقدن بعلوهن وأولياء أمورهن في الحرب وأصبحن بلا راع ولا كفيل، والمبتغى أن تمنح الفرصة لمن تسول له نفسه من الضعفاء وعديمي الوازع الديني والأخلاقي من النيل من النساء لكي تتفشى الرذيلة بينهم، كما فعلوا في القرن الأفريقي عندما ترك الطليان خلفهم أكثر من 65 ألف طفل غير شرعي خاصة من أمهات مسيحيات من بنات إرتريا، وكان الرجاء في ليبيا نفسه، عسى ولعل أن ينتج عن ذلك أبناء سفاح لإفساد المجتمع الطاهر المجاهد الذي لم

يستطيعوا كسره بالحديد والنار، حتى أن أم الخير محمد العوكلي – شاعرة المعتقل – وصفت ذلك في شعرها:

الجازل فالجازل مربوط

ان تكت رمه عال السوط[79]

الكيلاني ضريريط والمعتقل ...

فكان من بين الذين أعملتهم إيطاليا على تأديب السجناء وعُرفوا حينها بشيوخ الشوط أو "كابو فيلا" وعُرف عن الكثير منهم القسوة وشكوى الناس منهم، ولكن بعضهم استغل تلك الوظيفة والسلطات التي خولها له الطليان فسخرها في طاعة الله تعالى وخدمة أولئك المنكوبين بدون علمهم. فيحكى إن أحد أولئك كان الكيلاني ضريريط المغربي، الذي عرف عنه شدته،

---

[79] العوكلي، عبد العالي بوعجيلة أم الخير شاعرة معتقل البريقة، صـ 24.

فكان يمر على الخيام فإذا رأى أحد وخاصة من الرجال قد هندم نفسه واستشعر بأن حاله على ما يرام سواء كان ذلك من مشيه بتبختر وزهو أو غنائه متغزلاً أو متعلقاً بالإناث ما يثير الشهوة فيستدعيه ضريريط على الفور ويعطيه ما يحتاج من الكفوف أمام النساء حتى يستحي ويفقد هيبته وبريقه ومن استعصى أمره فيرقد للسوط وينال ما لا يطيق جسده حتى ينسيه الشهوة والغزل وحتى الخروج من فراشه. وبذلك استطاع أجدادنا في تلك الظروف الحالكة أن يتربصوا للخطر الأخلاقي الذي أراده العدو لهم لتفكيك منظومتهم الاجتماعية الأخلاقية المعقدة والتي عصت على أنْ تفك، ولنا فيما فعله الأوربيون في جنوب أفريقيا عبرة حين استحدثوا من خلال الإباحة الجنسية التي أدت إلى ظهور جيل من أبناء الأفريقيات الذين ميزوا بلونهم الذي لم يكن اسوداً ولا أبيضاً وإنما بين البينين، ولاقى المساكين الرفض من قبل الطرفين، فاستغلهم الرجل الأبيض كطابور خامس لطعن المقاومة السوداء في الخاصرة.

هذا وقد أخبرني الأستاذ المرحوم عبد المولى دغمان عن أحد المواقف المشرفة للكيلاني ضريريط، وقد أصبح نائباً في مجلس النواب عن برقة في الخمسينيات إبان العهد الملكي، عندما كان عسكرياً في صفوف الطليان وجيء بالشيخ عمر المختار وبعدما شنقوه وإذا بجندي إيطالي حقير يبصق على جثمان سيدي عمر الطاهر فلم يتمالك ضريريط نفسه فركله برجله حتى ألقاه طريحاً على الأرض فقُبض على الكيلاني ضريريط وسيق للتحقيق معه وفي خلال استجوابه استطاع أن يفلت منهم بذكائه فقال لهم: كيف اسمح لعسكري صغير كذاك أن يهين إيطاليا وشرفها بالبصق على جثة هامدة كتلك،[80] كذلك نصيحته لأحد أقارب المجاهدين بأن لا يفصح عن هويته للطليان الذين وضعوه في معتقل سلوق وإلا سينقل على الفور

---

[80]نقل عن البعض أن الكيلاني ضريريط لاقاه أحد أولئك الذين ذاقوا كفه وذكره بأنه سبق وان ضربه كفاً لم ينساه بعد، فما كان من ضريريط إلا أن يلف وجه السائل بكف أخر وقال له: لا زلت اضرب الكفوف حتى الآن.

إلى معتقل العقيلة البشع إذا ما عرف الطليان شخصيته الحقيقة.

المقاومة والتواطؤ ...

أما قضية المقاومة والتواطؤ فهي قضية شائكة ومن الصعب تفكيكها بالسهولة التي يتصورها البعض. ولكنني أستطيع القول إن أجدادنا انقسموا إلى ثلاثة أصناف واتفق أغلبهم على كره المستعمر؛ فالفريق الأول منهم رأى القتال واجب شرعي على كل مكلف، وكان رائد هذه المدرسة السيد أحمد الشريف والشيخ عمر المختار ومحمد عبد الله البوسيفي والفضيل بوعمر الأوجلي وصالح لطيوش ومحمد سوف المحمودي وحسين الجويفي، وسعدون السويحلي وأغلب من استشهد في سبيل ذلك. وللعلم حتى هؤلاء لم ينجوا من التهم التي كيلت لهم جزافاً. فاتُّهم على رأسهم الشيخ الرمز عمر المختار بأنه زعيم "الفلاقة" والمخربين حتى إن جريدة "بريد برقة" أطلت على

بنغازي بعنوان مثير مفاده "**القبض على عمر المختار زعيم العصاة**"،[81] والمضحك أن عمر المختار أُتهم بالاستسلام الكامل للطليان، ونسب إليه القول بأنه أطلق على الاحتلال الإيطالي صفة "الشرعية"،[82] بل ذهب أحد مشايخ القبائل المشهود لهم بالنعرة والغيرة القبلية وهو يرى قبيلته في طريقها إلى الفناء في معتقلات الفاشست، ويبدو أنه ذاق ذرعاً بتصميم الشيخ عمر المختار على القتال، الذي تصور أن لا طائل منه إلا الدمار والمزيد من الخراب، فقال ذلك الرجل في لحظة غضب للشيخ عمر المختار: **والله ياشايب يا خارف إن لم تخطانا نحطو عليك شبور** [قبيلتنا]... **(أي سيم حيوانات قبيلته)** فابتسم الشيخ عمر المختار، ولكن جاء الرد من الشيخ

---

[81]جريدة بريد برقة – لصاحبها عمر فخري المحيشي – 18 سبتمبر 1931. و كان ذلك الخبر عبارة عن بلاغ رسمي عن السلطات الإيطالية وكان متوقعاً أن ينشر بالصيغة التي خرج بها لان إيطاليا كانت ستعاقب المرحوم عمر المحيشي الذي عرف بوطنيته إن لم يفعل ذلك.

[82]ديل بوكا، انجيلوا (ترجمة محمود التائب) – الإيطاليون في ليبيا (الجزء الثاني) ص 200-201.

عبد الحميد العبار مجلجلاً وزاجراً إياه فقال له: **ثاري ... والله ما تقطع إلا ثديك**.

والجدير بالذكر أن الشيخ عبد القادر بوبريدان أيضاً، وهو أحد شيوخ العبيدات بيت غيث، من المعروفين ومن ذوي القامات الطولة، قد انتدبته إيطاليا للتفاهم مع قبيلته ومن في جوارهم، حتى أنها كادت تطمئن له، ما أزعج البعض ممن كان متصدياً للمشروع الاستعماري في المنطقة، ولكن لم يقطع علاقته مع إخوانه المجاهدين بالكامل، ولا مع قياداتهم السياسية، وإن بقى على مسافة من بعضهم، فها هو السيد إدريس في مصر بعد تكوين الجيش السنوسي يبعث برسالة خطية مع قائد القوات الخاصة البريطانية، فلاديمير بينيكوف، يطلب فيها المساعدة والعون لضباط القوات الخاصة ومن معهم، فبعدما اطلع عليها بوبريدان مزقها ورد على بينكوف شفوياً ببيت شعر من شطرة واحدة، تعرف في لهجة بادية برقة بـ "غناوة علم" فقال:

عليك يشهدن بالزور ياعزيز يا بال صاين

فعندما رجع بينكوف والتقى بالسيد إدريس نقل له رد بوبريدان، وإن تلعثم في نطق الغناوة، التي كانت الرد الشفوي على رسالته، حينها ضحك السيد، واطمئن للرد واستبشر خيراً بتعاون البدو في المنطقة الأمر الذي بالفعل حدث.[83]

إغراءات إيطاليا وزيارة موسوليني ...

أما الفئة الثانية وهم من رأوا إنقاذ ما يمكن إنقاذه من البلاد والعباد في إطار مقاصد الشريعة الكبرى من حفظ الدين والعرض ... والخ. ولا ننسى أن إيطاليا عملت جاهدة على الترويج بأنها تحترم العرب ودينهم الإسلامي على الرغم من ذبحها الليبيين ومحاربة دينهم وتراثهم. فسعت في آخر عهدها

---

[83] اخبرني بهذه القصة السيد مصطفى بن حليم نقلاً عن السيد إدريس في لقاء أجريته معه بتاريخ 13 يوليو 2001م.

إلى بناء المدارس لتعليم اللغة العربية جنباً إلى جنب مع الإيطالية وكذلك التربية الإسلامية وبنت المساجد ودفعت رواتب القيّمين على الزوايا، وحتى بنيتو موسليني عندما زار ليبيا سنة 1937م ليفتتح الطريق الساحلي الذي ربط البردي في شرق البلاد بطرابلس، الأمر الذي ساعد على وحدة البلاد جغرافياً وإدارياً، ولم ينس موسليني أن يزور كلاً من سيدي رافع في مدينة البيضاء وسيدي عبد السلام الأسمر في زليطن وهلم جرا. حتى قال أحد أجدادنا منشداً (في أرجوزة بالعامية):

مرحبتين بتيغي روما ..

من غيره ماهناك حكومة ..

ديرن صفين وصبولا

ما أن إيطاليا سعت إلى ضم أكبر عدد من الليبيين إلى الحزب الفاشستي فأقامت لهم حزباً خاصاً بهم وأسمته الحزب الفاشستي المسلماني، وفرقة حزبية اسمتها قاميتشي نيقري (القمصان

الزرق). هذا وقد تدرج في صفوف هذا المنظمات الفاشستية الكثير من الوطنيين بدافع الغيرة ولقد لعبوا دوراً في بناء الصرح الليبي باستقلاله ووحدته، فمنهم من استوزر ومنهم من ترأس الوزارة مرتين كرجل الدولة الكبير محمود المنتصر، وأرغم جميعهم بطريقة أو أخرى على أن يكونوا في عداد من كان في استقبال موسليني، وأُقيم في تلك الزيارة حفل كبير وتم إهداء موسليني فيه سيفاً يرمز للإسلام في طرابلس،[84] ومدحه الشاعر أحمد الشارف بقصيدة ألقاها فيه، وفى حفل مهيب قرب سوق الجمعة، جاء موسليني على صهوة جواده وسط جموع الفرسان الليبيين وألقى فيهم خطاباً قام بترجمته عمر فخري المحيشي، علماً بأنه سبق ذلك زيارة مدينة بنغازي حيث مر عبر سوق الجريد وسوق الظلام مشياً على الأقدام إلى ميدان البلدية في

---

[84] القشاط، محمد سعيد – خليفة بن عسكر (الثورة و الاستسلام)، ص 345.

المدينة حيث زار الجامع العتيق حيث كان في مقدمة مستقبليه الشيخ عبد الحميد الديباني باعتباره قاضي المدينة.[85]
وقد سبق ذلك تكوين لجنة رتبت زيارة موسليني لليبيا والملفت أن الشارف باشا كان غائباً في هذه الترتيبات، وللعلم فإن هذه الفئة التي استقبلت موسليني كانت مرغمة ولا يملكون الامتناع

---

[85]اثبت الشيخ عبد الحميد الديباني بأنه من الشخصيات الوطنية الكبرى إذ انه هو من بشر بإفلات المجاهد عبد الحميد العبار عبر الأسلاك الشائكة على الحدود المصرية الليبية الأمر الذي سهل استقبال الشيخ عبد الحميد العبار في مصر من قبل مشايخ أولاد علي ومن ثم السماح له للعيش في مصر عام 1932م. كما لعب الشيخ عبد الحميد الديباني أدواراً متفاوتة إبان العهد الملكي فعين مستشاراً للمحكمة العليا ضمن الهيئة التي نظرت في دستورية الأمر الملكي الصادر في يناير 1954م بحل المجلس التشريعي الطرابلسي وأصدرت حكمها في إبريل في نفس العام ببطلان ذات الأمر، ومن ثم وزيراً للعدل ونائباً لرئيس الوزراء في حكومة عبد المجيد كعبار (57-1960م) وكذلك شيخاً للجامعة الإسلامية في البيضاء التي كانت حينها تسمى جامعة الإمام محمد بن علي السنوسي عام 1961م إبان حكومة الدكتور محي الدين فكيني خلفاً للشيخ منصور المحجوب، ومستشاراً في المجلس الاستشاري للملك إدريس، وتعتبر أقوى هيئة استشارية بعضوية كل من رئيس مجلس النواب ومفتي الديار الليبية ورئيس مجلس الشيوخ الذي كان يشغله الشيخ عبد الحميد العبار.

إلا إذا اختاروا الموت كما يقول الشيخ الطاهر أحمد الزاوي،[86] ولم يذكر أنها آذت أحداً من الليبيين، بل لعبت أدواراً شتى في الحفاظ على الوطن ومقدساته بما أوتيت من حنكة وقوة ودفعت به إلى نيل استقلاله عن المستعمر، وما مكتبة الأوقاف في طرابلس إلا خير شاهد حينما تمكن هؤلاء بغيرتهم، وفي مقدمتهم السيد محمود المنتصر، من إنقاذ مكتبات حوت بين أرففها الآلاف من نفائس الكتب ومؤلفات ومخطوطات الطريقة السنوسية التي كانت في الكفرة والجغبوب وغيرها، وساهم الشيخ الشارف الغرياني بمعية ومساعدة الشيخ موسى البرعصي من انتشال ما يمكن إنقاذه من هذه الكنوز الفكرية والفقهية من عاصمة الفكر السنوسي في الجغبوب ومن ثم جُمعت جلها في بنغازي من قبل الدكتور علي نور الدين العنيزي وتم إيداعها

[86]راجع: المفتي، محمد محمد – الهوية المهربة: همس الخاضعين على صفحات مجلة ليبيا المصورة (1935-1940) مجلة الفصول الأربعة (عدد إبريل 2000م).

في طرابلس عندما استلمها مسؤول الأوقاف، محمود المنتصر، لتحفظ لنا شيئاً من ذاكرتنا التراثية.

ومن المفارقات والعناد عند الآباء والأجداد أن الشيخ مختار حورية (1951-1888م)، شيخ المقرئين في طرابلس،[87] عندما طلب منه قراءة شيء من القرآن في الاحتفال الذي عد لاستقبال الحاكم الإيطالي لليبيا، لعله بالبو، فقرأ عليهم:

خُذُوهُ فَغُلُّوهُ، ثُمَّ الجَحِيمَ صَلُّوهُ، ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ".[88]

وفي احتفال آخر لعله بمبنى الإذاعة المسموعة إبان الحكم الإيطالي قرأ عليهم الشيخ مختار رحمه الله:

"**هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ**".[89]

---

[87] المصراتي، علي مصطفى - نماذج في الظل، 339-356.

[88] سورة الحاقة - آيات 30-32.

[89] سورة الحاقة - آية 11.

تناوش لطيوش والسويحلي ...

ومن طرائف عصبيات أجدادنا ومشاحناتهم أنهم عندما اختلفوا في حقبة الجهاد وكان التنافس على اشده بين القبائل في المنطقة الواحدة ليس فقط في طرابلس حيث استشرى الاختلاف ليصل إلى الخلاف والتنابذ والاقتتال الداخلي الذي أنهك واضعف صف الغرب أمام المحتل، ولم تنج برقة من الخلافات أيضاً حتى أن القيادة السنوسية قررت حبس المجاهدين صالح لطيوش والفضيل المهشهش، وقد تم ذلك وأُقفل عليهما في زنزانة في جالو،[90] ولكن سرعان ما احتل رجال قبيلة المغاربة الواحة وأخلو سبيلا لطيوش ورفيقه، فاهتزج المهشهش، ما أعجب لطيوش، وقال:

بلا جميل بولحية وحتى السيد

---

[90] وقيل إنه بقى في خيمة لم يغادرها حتى وصلته النجدة من بني عمومته المغاربة.

نصبح مع جماعتي اتقول معيد

والمعنى أنه ليس في حاجة إلى جميل من بولحية، والمقصود بـ بولحية الشيخ الرمز عمر المختار، ولا حتى السيد ويقصد محمد الرضا الذي كان وكيلاً نيابة عن أخيه السيد إدريس في قيادة السنوسية في برقة. أما الصراع البرقاوي الطرابلسي فقد جسده هجاء الشاعر ناصر بوعثكلة الحسوني لأهل برقة في دفاع مستميت عن رمضان السويحلي الذي كانت له خصومات كثير منها كره صالح لطيوش له، فقال:

نا نخبرك عالعرب ميعاده عمر

ما عاد خافي فيه شياً كان

دار به ولد صنديد مشهور الخبر

أخزام الصفافي يتذكر رمضان

مما أدى بصالح لطيوش إلى تعميم ما قاله خصومه وخاصة هذه القصيدة لبوعثكلة بين شعراء برقة الموالين له، مستذكراً إياهم بحرب الصف بين عرب الشرق والغرب وما جرى بين رزق الله الحسوني وحمد اللواطي ويمين الأخير الشهير على أن برقة ظهر حمار لا يركبها أحد إلا هو بعدما أكد رزق الله بأن برقة ظهر حمار لا يتسع لعرب الشرق ولا الغرب معاً، فرد بقوة على جماعة السويحلي أمير شعراء بادية برقة خالد رميله لسوء حظ بوعثكلة مما كفى به غيره فقال:

انتو وطنكم ملكوه من البر للبحر

خذوه شوربة تسليم للفزان

واحنا نجاهدوا لله والدين انتصر

لا نهاس ملوانا لهم لا لان

وحتى أسمه ورسمه اللي بيه تفتخر

لولا حرابنا ما تم صاحب الشان

احنا اللي جبناه (رمضان) من الزر والوعر
عتيق سيفنا خذناه من الطليان

كان رمضان السويحلي (رحمه الله) شجاعاً، مشاكساً، وعنيداً، لا تلين له قناة، معتزاً بنفسه، وعُرف عنه كرهه ومحاربته للسنوسيين وحركتهم ورجالهم، فلم يعترف بفرمان السلطان العثماني القاضي بتعيين السيد أحمد الشريف كنائب للسلطان في أفريقيا وقائد لجيوشها، ولم يلتزم بتطبيق القوانين والنظم العثمانية في هذا الشأن، وقد استعرت نار الفتنة بينه وبين السنوسيين وتأججت في أواخر عام 1918م، وخلافات السويحلي مع الضباط العثمانيين كانت معروفة ومعلنة كنوري باشا وإسحاق باشا وكذلك خلافاته مع آل سيف النصر في هذا الصدد،[91] الأمر الذي حذا بالسويحلي لدرجة تدبير أمر القضاء على قافلة مبعوثة للسيد أحمد الشريف كانت في

[91] هويدي، مصطفى علي – الحركة الوطنية في شرق ليبيا، صـ 166-167، 170.

طريقها لنجدة السيد من الشر والمجاعة اللتين وقع فيهما مما أدى إلى قتل أفراد القافلة واغتصاب ما فيها من أرزاق، وهذا ما شهد به قاضي مصراتة الشيخ محمد بن حسن عبد الملك،[92] فقال:

"كنت أنا ومن معي وقت وقوع هذه النازلة الشنيعة بمعية السيد أحمد الشريف السنوسي، وقد بلغتنا قبل بلوغها للسيد بخمسة أيام وكتمنا أمرها حيث أن من حاشيته من يزين له أعمال رمضان، فلو سارعنا بإبلاغها وقتها لقيل لنا أننا مفتونون فوكلنا أمرنا للأيام والليالي ...".[93]

وشعراء الوطن ...

هذا الجدل والخصام السلمي استمر فيما بعد في هيئة حراك سياسي سبق الاستقلال بين البرقاويين أنفسهم وكذلك بين

---

[92] راجع: العيساوي، محمد الأخضر – رفع الستار عما جاء في كتاب عمر المختار، صـ 54.

[93] هويدي، مصطفى علي – الحركة الوطنية في شرق ليبيا، صـ 164.

أهل طرابلس من جهة وبين البرقاويين والطرابلسية من جهة أخرى حتى أن أحمد رفيق المهدوي نزل المعركة وقال مستهزئاً ببعض أعيان برقة فقال:

رشيد ورقرق والسلاك[94]

ثلاث هفاك

بخيل ومجنون وهرواك

أما الشاعر أحمد الشارف فلم يتمالك أعصابه ففي غبار المعامع اتهم البرقاوية بقيادة السنوسية بتغيير وتحريف الدين فنظم قائلاً:

وعصبة من ذوي الأصوات قد فرضت

فرضاً ولكنه فرض ينافينا

---

[94] رشيد الكيخيا وسليمان رقرق ومصطفى السلاك ... وللعلم كانوا أصدقاء لأحمد رفيق المهدوي ... رحمهم الله جميعا.

تريد تمكين بيت من أقاربها

وفي الحقيقة إرهاق البعيدينا

كانت على نسق الإسلام صبغته

فادخلوا فيه تغييراً وتلوينا[95]

فاستشاط الشاعر أحمد فؤاد شنيب ورد عليه بعنف قائلاً:

شلت يمينك ما خطت وما عبثت ...

الوطنيون من المجندين الشناوير ...

أما الفريق الثالث فهم أولئك الذين انضموا إلى الجندية الإيطالية وتعاونوا معهم وعرفوا محلياً بـ الشناوير. فبعضهم كان انضمامه طوعاً للحفاظ على كيانه ومكتسباته أو بغضاً في إخوانه من

---

[95] المصراتي، علي مصطفى – أحمد الشارف (دراسة وديوان) صـ 110.

القبائل المنافسة له والأخرى التي على خلاف معها.[96] ومن هؤلاء الوطنيين الذين جلهم جندوا جبراً وبعضهم طوعاً لم يتخلوا عن أهلهم أو حركة الجهاد، فقد لعبوا دوراً كبيراً في دعم الأدوار المقاتلة سواء بالمعلومة الاستخبارية أو الأسلحة والذخائر والمؤن مما أطال في عمر المقاومة وعنفوانها. وكتب الدكتور يوسف البرغثي:

بأنه ثبت بالدليل القاطع لدى الإيطاليين أن المجاهدين يحاربونهم بسلاحهم نفسه الذي كانوا يتحصلون عليه غنائم أثناء المعارك، أو ما يصلهم من هدايا ومساعدات من أقربائهم وإخوانهم الخاضعين للسلطات الإيطالية، كما ثبت لدى المخابرات الإيطالية أن المجندين الليبيين بالجيش

[96] الزاوي، طاهر أحمد – جهاد الأبطال في طرابلس الغرب صـ 410.

الإيطالي كانوا يتعاطفون مع بني جلدتهم المجاهدين ويمدونهم بالأسلحة، ويتبرعون بمرتباتهم زكاة منهم.[97]

نقل العقيد ركن بشير محمد رمضان عن غراتسياني قوله في شان دور المجندين الليبيين في إمداد المجاهدين:

لقد تم تجنيد حوالي 2188 جندياً من العرب من بينهم 1000 فارس ولكنهم جميعاً يعتبرون ممولين لعمر المختار، ولو كان منهم 500 مخلصين صادقين في ولائهم لنا لتم القبض على عمر المختار. ويستطرد العقيد بشير وينقل: **بان غراتسياني يدرك أن الانقسام بين المستسلمين والعصاة (المجاهدين) لم يكن ظاهرياً والغرض الوحيد منه هو استمرار غموض الماضي، فالفريقان في الواقع كانا يكونان وحدة متلاحمة تخضع لزعماء التمرد وتعارض تغلغلنا وبسط نفوذنا بكل**

---

[97] البرغثي، يوسف سالم – حركة المقاومة الوطنية بالجبل الأخضر (1932-1927م) ص .141

إصرار وبجميع الوسائل والطرق إذ كانت الجماعات التي استسلمت مازالت تزود العصاة بكل ما يحتاجون إليه بالرجال والسلاح والمؤن والمال.[98]

وهذا لم يكن غريباً في تلك الأجواء التعسفية، ففي العائلة الواحدة تجد من هو في صفوف المجاهدين وله من الاخوة أو أولاد العمومة يعمل مع الطليان، ولكن هذا لا يمنع تعاون الفريقين كما هو كان حال السيد أحمد الشريف وما يمثله هو وأخيه السيد صفي الدين من مقاومة وجهاد ضد الاحتلال بينما أخويهما الآخرين السيد هلال والسيد عابد من تعامل مع الطليان،[99] حتى أن السيد هلال الشريف قد استسلم في فترة مبكرة سنة 1916م، بينما أخيه السيد أحمد الشريف لازال يحمل لواء الجهاد ويقاتل، لينضم السيد هلال الشريف رسمياً إلى الطليان ويصبح أول سنوسي يفعل ذلك بصورة علنية، ويساهم

---

[98]رمضان، بشير محمد – القيادة والإمداد في حركة الجهاد الليبي ص380-381.

[99]ديل بوكا، انجيلوا (ترجمة محمود التائب) – الإيطاليون في ليبيا (الجزء الثاني) ص 156.

في نزع ما يقرب من ألف بندقية من قبيلة العبيدات، ويسلم تلك الأسلحة للطليان، ما أثار حفيظة العائلة وخاصة السيد إدريس الذي شعر بأن مركزه العسكري ووزنه السياسي ناهيك عن قدرته للمناورة والمفاوضة قد أضعفت، ما ضعضع هيبتهم أمام الصديق قبل العدو.[100]

وهذه لم تكن عرابين وفاء والتزام بالمجان من السيد هلال أو حباً في المستعمر، ولكنها الضرورة (التي أحياناً قد تبيح المحظورة) مقابل المؤن لعائلات العبيدات الجائعة، حتى أن أجدادنا عاب بعضهم على بعض أمام الجلاء عن الوطن، وهذا ما أُعتبر خيانة عند البعض أو البقاء تحت نير المستعمر الذي نظر إليه من قبل الآخر بأنه خضوع للمستعمر حتى أن أحد الشعراء الذي جلا عن الوطن رد شعراً على ما أشكل عليه جلائه وهجرته للوطن فقال:

---

[100] هويدي، مصطفى علي – الحركة الوطنية في شرق ليبيا، صـ 53، 105، 113-116.

جلينا وما في الجلاء عيب

وما عيب كان الخيانة

واليوم رجع وطنا بعد الاشاديد

وكل حد رجع لمكانه

فقد بيتت إيطاليا منذ البداية النوايا في استعمال العنصر المحلي، ولكن لم تكن متأكدة من انضباطه وولائه لسلطانها، وبالفعل طلبت الحكومة في روما من واليها إمكانية تجنيد ثمانون ألف من الطرابلسيين الذين يتمتعون بالخبرة القتالية وفنون الحرب، فكان رد الوالي على الفور بالإيجاب ولكن محذراً في حين عدم المقدرة في التخلص من السنوسيين ونفوذهم على الأهالي، ولن يكون هناك لا أمن ولا سلام طالما استمرت السنوسية في طرابلس، معللاً ذلك بأنه كلما أردنا أن نجند أحدهم وندربه في صفوف عسكريتنا فإنه يفر ويلتحق بهم، ولذلك تقرر أن يكون الجيش من الوطنيين من مصراتة وترهونة وزليطن ومسلاتة وورفلة

ويكون القائد العام العقيد مياني، وجعلت على جيش مصراتة رمضاني السويحلي قائداً، وجيش ترهونة الساعدي بن سلطان، وعلى جيش ورفلة عبد النبي بلخير، وعلى جيش زليطن محمود عزيز، ظناً من الطليان بأن هؤلاء القادة سيكونون أوفياء أصدقاء لهم ضد السنوسية، ولكن نسوا أن رمضان السويحلي – على الرغم من كرهه للسنوسيين – قال: "**أنا أفضل أن أكون في جانب السنوسيين على إيطاليا**"، وكانت تلك كارثة حلت وأدت إلى هزيمة الطليان في معركة القرضابية الشهيرة وتداعياتها، حين انقلب رمضان السويحلي على الطليان ليقصم ظهر البغاة، ليسبقه انسحاب عبد النبي بلخير بقسم من ورفلة الذين كانوا في معيته، بينما قسم آخر وهم قبيلة الطبول – فرع من ورفلة – الذين كانوا مع حمد سيف النصر في لا يقل عن ثمانمائة فارس لنصرة حملة لواء السنوسية ضد الطليان.[101]

---

[101] راجع: العيساوي، محمد الأخضر – رفع الستار عما جاء في كتاب عمر المختار، ص 28-31.

وهذه الظاهرة أكدتها قوة الاحتلال بان: **تواطؤ المستسلمين مع المقاومة أمر عادي هنا في المستعمرة. كما أنه أمر عادي ومألوف وجود أسرة بعض رجالها القادرين على حمل السلاح يقاتلون مع الدور وبعضهم الآخر يعمل مع الحكومة.** [102]

ليبي يقتل قائده الإيطالي ...

واليكم قصة رجل اشتغل في الجندية الإيطالية وكان "شنواري" ولعله من الأمثلة الحية على بعض من أجدادنا الذين اضطروا إلى الانخراط في الجندية الإيطالية وأراد قصم ظهرها من داخلها وهو الأمر ذاته الذي قام به خليفة ارحيم علي الدرسي، المعروف آنذاك بـ خليفة الحولة، وهو من بيت عبد – قبيلة الدرسة المعروفة في جبل الأخضر. ولد خليفة الحولة بالمرج وترعرع بينها وبين طلميثة، ومما عُرف عنه لاحقاً تعامله مع

---

[102] مجموعة من الباحثين الطليان – عمر المختار وإعادة الاحتلال الفاشي لليبيا صـ 77.

الشهيد سليمان العرفي في الخفاء والمجاهد البطل سعيد الجربوع، أحد شيوخ قبيلة العبيد وقادتها.

الذي شهّر المجاهد خليفة الحولة ما تجرأ على القيام به في معركة بوعرق في تاكنس موطن قبيلة العبيد وهو قتل ضابط الحملة الإيطالية الشهير توريللي – على عكس ما ذكرته الروايات الأخر بان مقتله كان طعناً – ومرجع قتل الحولة لتوريللي بمسدسه الخاص عندما كان جندياً في حملته أن توريللي نفسه أمر بتصفية الحولة برصاص القناصة الطليان للدور الذي كان يلعبه الحولة في معونة المجاهدين في الخفاء والسر كما فعل كثير من أنداده ممن جند مع الطليان.

وتقول الرواية[103] .. عندما تم تحديد حملة عسكرية لتأديب قبيلة العبيد وفتح مناطقها في الجبل التي كانت مسيطرة عليها

---

[103]اخبرني هذه الرواية الأستاذ عبد القادر الدرسي حفيد خليفة الحولة نفسه في حوار جرى بيننا حولها بتاريخ 13 يناير 2006م.

هذه القبيلة، وللعلم أن هذه القبيلة كان شيخ زاويتها عمر المختار نفسه، وكان خليفة الحولة يعمل مع الطليان في الظاهر وبالسر مع رجال عمر المختار، وكان متابعاً لأحوال قبيلته عن كثب، وكذلك القبائل الأخر في برقة والجبل الأخضر وما يعانونه من ويل وآلام. هذا وقد طُلب من خليفة الحولة مرافقة الحملة كدليل لأنه يعرف مسالك ودروب الجبال لكونه من أبناء الجبل وقبائله.

وعندما انطلقت الحملة اجتمع المجلس الحربي بقيادة توريللي الذي اخبرهم بنفسه أن بينهم جاسوساً، وقصد ضمنياً خليفة الحولة، لأن أغلب الحملات كان مآلها الفشل ضد المجاهدين، وبالتالي ثمة من يقوم ببث الأخبار عنهم ولا يوجد سوي (الكلب العربي) خليفة ارحيم، وهو من يفعل ذلك، لأنه قال من خبرتي مع أبناء القبائل أن دينهم يفرض عليهم التماسك

وللعلم أن خليفة ارحيم الحولة عاش بعدها حتى توفي سنة 1948م في مدينة المرج، ولم يبقي له من الأبناء أحياء حتى سنة 2001م سوي ابنة واحدة، وقيل إن هناك صورة له في مجلة ليبيا المصورة تحت اسم أعيان مدينة بنغازي تجمعه مع ثلة من كبار المدينة.

ولذلك قال إذا خسرنا معركتنا هذه في الجبل فعليه يتوجب أن أول من يتم تصفيته هو خليفة ارحيم العبدي، واسم العبدي نظراً لبيت آل عبد الدرسة، وعندما خرج الجميع من الاجتماع أدرك خليفة ارحيم بان توريللي غير راضٍ عنه، وأن هناك أمر يدبر ضده لذلك كانت بينه وبين أحد الضباط الصغار صداقة وروابط مالية فحدثه بالأمر فقال له: انتغدى بيه قبل ما يتعشى بي.

وبعدما تجمعت القوات تحدث توريللي مع خليفة الحولة وقال له: نريدك دليلاً في الجبل أنت تعرف الدروب وتعرف شيوخ الجبل ونحن نريد أن يعم السلام بيننا وبين الأهالي، فابتسم الحولة وقال له: بل تريدون النار للجبل ... ولكنه سرعان ما استدرك الموقف وضحك وقال: إنها مزحة. بالفعل تحركت الحملة حتى وصلت إلى تاكنس وهناك ظهر مقصد الحملة ولكن قبلها خليفة ارحيم بعث بأحد عيونه ليخبر"المحافظية" المجاهدين بأمر وتفاصيل حركة الحملة ليتأهبوا لها كالعادة، وكان

ذلك سبباً مباشراً في إفشال الحملة لعلم المجاهدين مسبقاً بمخططها. وبالفعل ما أن طلت الحملة حتى انهال عليها وابل من رصاص "المحافظية" وفتحت عليهم النيران من هنا وهناك، وكان خليفة الحولة بالقرب من توريللي، وعندما ولى توريللي الدبر ليطلق لساقه العنان –كعادتهم – وحاول الفرار بعد علمه بخسرانه للمعركة، فما كان من الحولة إلا أن يغتنم الفرصة ويصوب فوهة مسدسه ويضرب توريللي بالرصاص حتى تأكد من موته وبعدها على الفور اخفي مسدسه، وسقط علي جثة توريللي[104] وجنده يسحبونه أرضاً والحولة يصرخ ويبكي عليه ويقول: قتلوك ياجنرالي قتلوك.

التعامل مع المستعمر ...

---

[104]سمي على توريللي معسكر في بنغازي ومن بعد تحول إلى مجمع مدارس داخلية بعد الاستقلال وعُرف بـ توريللي.

ومن بحث في موضوع "التعامل مع المستعمر" بشيء من الجراءة كل من الدكتور علي عبد اللطيف احميدة في أطروحته تحت عنوان فرعي: "**دوافع وسياسات حركات التواطؤ مع الاستعمار**"،[105] والدكتور محمد المفتي في مقالته المثيرة بعنوان "**الهوية المهربة: همس الخاضعين على صفحات مجلة ليبيا المصورة (1935-1940م)**".[106]

ثمة عدد من كبار المجاهدين كرمضان السويحلي وعبد النبي بلخير وغيرهم من الذين عرفوا بكرههم للإيطاليين على الرغم من أنهم كانوا في عداد من مونتهم إيطاليا وسلحتهم، ولكنهم تحينوا الفرصة المناسبة عندما واتتهم فانقضوا على الطليان كما فعل السويحلي في القرضابية.

---

[105] أحميدة، علي عبد اللطيف – المجتمع و الدولة و الاستعمار في ليبيا ص 153-161.

[106] راجع: المفتي، محمد – الهوية المهربة: همس الخاضعين على صفحات مجلة ليبيا المصورة (1935-1940) مجلة الفصول الأربعة (عدد إبريل 2000م).

رمضان السويحلي وعصبياته ...

رمضان السويحلي من الشخصيات التي لعبت دوراً بارزاً في جهاد أهلنا، أذاق الطليان مرارة الذل والخسارة وخاصة في قلبه للطليان ظهر المجن في غبار القرضابية وبها طفح الكيل للمجاهدين، ولا ينكر ذلك إلا جاحد ناكر. ولكنه في نفس الآن أُحيط شخصه بكثير من العنتريات،[107] فيحكى أن امرأة من أولاد شيخ مصراتة (عائلة بوشعالة) كان ولدها الوحيد جندياً في عسكر الباي رمضان الذي كانت الناس ترهبه. وكان رمضان حينها يجهز نفسه للحملة على القرضابية، فجاءت تلك المرأة إلى زوجة رمضان في البيت وطلبت أن يتكرم الباي عليها بعدم اصطحاب وحيدها إلى أرض المعركة، ورجتها أن تقنعه بذلك. وعندما رجع رمضان أخبرته زوجته بأن امرأة مرابطة من الأشراف المرابطين، الذين كانت لهم مكانة وحرمة

---

[107] نجم، فرج عبد العزيز – أبطال وملاحم صـ 25.

في المجتمع الليبي، تمنت لو أُعفي ابنها الوحيد من الذهاب للحرب. فقال لها رمضان: قولي لها والله إن ابنها لن يخرج من مصراتة، ففرحت تلك المسكينة. ولكنها فرحة لم تتم، لأن رمضان أشنق ابنها في شجرة التوت أمام القصر في اليوم التالي. وقال لهم: ليس من بين رجالي من يختبئ وراء أمه .. ؟

كذلك ابتلاء الرجل بالفتن والصراعات التي أفسدت العلاقة بينه وبين قيادات جهادية كثيرة سيما اتباع السنوسية حين اعدم ثلاثة من الإخوان السنوسية وهم: الشيخ أحمد التواتي ومفتاح الزوي وعبد الله الأشهب، وقام بدفنهم بدون غسلهم أو حتى الصلاة عليهم أو كما هو متواتر عند السنوسية. حتى هجاه خالد الرميلة في ذات القصيدة سالفة الذكر في خضم الرد على بوعشكلة:

يا ذباحة رجال الله والراس مدنقر

وهم حاملين العلم والقرآن

وعُرف عن رمضان السويحلي جزافه وتجاربه المثيرة فقد حاول غزو برقة البيضاء ولكن تصدى له رجال صالح لطيوش من المغاربة بقيادة الشريف الحرنة الذي رد رجال السويحلي على أعقابهم، ولكن بعدما قتل الشريف الحرنة في المعركة ليخلفه أخيه امهدي فطردهم إلى أن دخلوا حدودهم. لذلك يشك كثير من أهالي المنطقة الشرقية في كون رمضان مجاهداً بل يجزم البعض بإنه كان رجلاً قبلياً وزعيم باندة على عكس أخيه سعدون الذي يجله أهل برقة حضراً وبادية كشهيد من شهداء الجهاد المقدس. وهذا الرأي يجد قبولاً لدى المحلات المجاورة التي عانت من جبروت رمضان السويحلي لا سيما ورفلة الذين غار عليهم، وقيل إن السويحلي كان حينها صائماً، فقتلوه شر قتلة،

وحزوا رأسه، ورموا به في الرمضاء على أبواب بلدة بني وليد.[108]

إيطالي يستشهد وآخرين يشهدان لليبيا ...

على الرغم من الطليان عندما توجهوا صوب شواطئنا الآمنة كان ينشدون:

إنني ذاهب إلى ليبيا فرحاً مسرورا ..

لسحق الأمة الملعونة ..

ومحو القرآن ..

فإذا مت يا أماه فلا تبكيني ..

---

[108] راجع: العيساوي، محمد الأخضر – رفع الستار عما جاء في كتاب عمر المختار، صـ 35-54، 48، 64.

وإذا سألوك عن عدم حدادك فقولي لهم ..
لقد مات وهو يحارب الإسلام.[109]

كان هناك الكثير من الإيطاليين ممن اتخذ موقفاً رائعاً ضد الحرب، ولعل أشهر من عارض احتلال ليبيا في بادئ الأمر .. من المفارقات العجاب .. كان موسليني عندما كان شاباً اشتراكياً راديكالياً، وكثير من اليسار الإيطالي الذين عارضوا الاحتلال ونُفي أغلبهم إلى الجزر النائية الإيطالية كما فُعل بأهلنا في ليبيا، ولكن أشهرهم المجاهد الشهيد الشاويش كرميني جوسيبي الذي فر من بني جلدته في ليبيا بعد معركة وادي المقاطع بالقرب من درنة عام 1915م التي اظهر فيها الطليان وحشية وشراسة وانتقام شديد ما جعله يلتحق بالمجاهدين 1916م، ليسلم نفسه لرجال الشهيد القائمقام الفضيل بوعمر،

---

[109] راجع: الفاضلي، فتحي مقالة "**هاتوا نبيكم البدوي يحميكم**".
نقلاً: عن موقع أخبار ليبيا بتاريخ أبريل 2006م.

ويعلن إسلامه، ويقاتل معهم وهو حافي القدمين كبقية المجاهدين الفقراء، ويقترن بامرأة من قبيلة المجابرة، اسمها تبرة موسى بعرو، التي أنجبت له ولداً وبنتاً، وقد رقاه عمر المختار إلى رتبة ملازم، وبعد وشاية يقبض عليه الطليان في جالو، ومن ثم نفذوا فيه حكم الإعدام، ولازال أولاده وأحفاده يعيشون في بنغازي، وشكر الله الأستاذ فتحي الساحلي الذي سلط الضوء على سيرة هذا المجاهد الشهيد، ونشرها في كتاب يحمل عنوان "المجاهد الشهيد يوسف المسلماني"، الاسم الذي اختاره الشهيد كرميني يوريو جوسيبي (Carmine Jorio Giuseppe) لنفسه بعدما اسلم.[110]

وكذلك الجنرال Giuseppe Daodiace جوزيبي ديوديتشي، ولد عام 1884م وتوفي في 1973م، عمل متصرفاً للجبل الأخضر، وبرز في فيلم عمر المختار وهو يناول الشيخ قدح الماء

---

[110] الساحلي والتريكي، فتحي علي ومحسن عبد الرحيم – المجاهد الشهيد يوسف المسلماني 24-25.

لكي يستعد للوضوء بعدما وقع في الأسر، وكذلك حياه بالتحية العسكرية بعدما نُفذ فيه حكم الإعدام، هذا في عالم الخيالة، أما في الواقع فقد حاول إقناع الشيخ عمر المختار بالتنكر لبعض الأمور التي حدثت بين رجال عمر المختار والطليان حتى يفلت من حكم الإعدام، ولكن رفض الشيخ الشهيد،[111] وكذلك كان الإيطالي الوحيد في ليبيا الذي أثنى عليه الشهيد الرحالة الدنمركي المسلم اكنود هولمب، وقد عُرف عن ديوديتشي تعاطفه مع أهلنا ولم ينسوا له ذلك، والذي استمطر عليه حنق وكره غراتسياني الذي طرده من ليبيا عام 1932م، وقد رأيت بنفسي تعليقه على كتاب غراتسياني فقد كتب على صدر الكتاب بخط قلمه تحت اسم غراتسياني "**السارق القاتل**"، وعند مقابلتي لابنته فيكتوريا التي أطلعتني على وثائق ورسائل والدها قالت لي: كان والدي يكره

[111]جاء هذا في حديث للأستاذ مفتاح السيد الشريف مع ديوديتشي صيف 1968م في منزل الأخير بروما، زودني بنسخة من هذا الحديث الأستاذ مفتاح الشريف بعد لقاء وأحاديث عدة معه في هموم تاريخنا.

غراتسياني لأنه قاتل وسارق مجوهرات آل كعبار بعدما اعدم الهادي كعبار.

فقد أنقذ المبروك بن حليم من حبل المشنقة ورأيت رسالة الشكر من بن حليم، كما رأيت بين أوراق ديوديتشي رسائل الشكر والثناء من بعض مجاهدينا ووجهائنا لمواقف هذا الرجل النبيلة، كاحتجاجه على الغدر بالمجاهد عيسى الوكاك مما أدى إلى استشهاده على أيدي المستعمر، وأرقام من نجا من المعتقلات من أبناء قبائل كل من العبيدات والعبيد والدرسه،[112] وقد شهد ضد غراتسياني في المحكمة الإيطالية التي أدانت غراتسياني بجرائم حرب ضد الإنسانية وبرئت ساحة ديوديتشي، وكان يدافع بقلمه في فترة الخمسينيات والستينيات عن ليبيا والليبيين في الصحف الإيطالية، وقد كتب في إحدى الجرائد الإيطالية قبيل وفاته مدافعاً عن الحكومة الليبية بقيادة

---

[112]كتب ديوديتشي (عام 1947م) عن من رجع من المعتقلات من قبيلة العبيدات الذين ادخلوا كان عددهم 18 ألف، ولكن رجع 6 آلاف فقط،، و9 آلاف من العبيد رجع 3 آلاف، و14 ألف من الدرسه رجع 4 آلاف فقط.

العقيد معمر القذافي عندما طرد بقايا المستوطنين الطليان في ليبيا عام 1970م.

ويكفيه أن الملك إدريس خصص له راتباً تقاعدياً بعد قيام المملكة، ولم يبخل عليه الشيخ علي باشا العبيدي بالشاي والسكر والقهوة سنة 1947م رداً للجميل الذي أسداه له عندما اصبح ديوديتشي فقيراً معوزاً لا معين له.[113]

ولعل أكثر من فضح إيطاليا وصدمها بتاريخها الاستعماري البشع التي أرادت أن تنساه أو تتناساه، وضيقت عليه المؤسسة السياسية والصحافية في إيطاليا من المؤرخين الطليان المنصفين هو البرفسور انجلو ديل بوكا، الذي كتب أكثر من 100 بحثاً وكتاباً في هذا الصدد، خاصة عندما كشف قليل من كثير الجرائم التي ارتكبها الطليان باسم إيطاليا ومجدها المزعوم في ليبيا

[113] في سلسلة من اللقاءات التي أجريتها مع فكتوريا ابنة جوزيبي ديوديتشي في شهر يناير وفبراير 2007م.

والقرن الأفريقي، فقد هُدد الرجل بالقضاء عام 1956م، لأنه فضح إيطاليا وأثبت أنها استخدمت الغاز الكيماوي ضد الأثيوبيين العزل، ولكن وزارة الدفاع برأت ساحته عام 1990م، وردت له اعتباره الأكاديمي باعترافها بأنها استخدمت هكذا غاز.

شيوخ غدرت بهم إيطاليا ...

والشيء بالشيء يذكر .. فمن الذين غدرت بهم إيطاليا بعدما أمنتهم الشيخ سليمان سعيد أحد مشايخ قبيلة العرفة وحمد عبد ربه – قبيلة الدرسة – اللذان كانا محسوبين على الطليان ويتلقيان الرواتب والمنح منهم، ولكن عُرفا بين المجاهدين بأنهما يستغلان ما يتحصلان عليه من العدو لدعم حركة المقاومة، فكانت خيام الشيخ حمد عبد ربه استراحة للمجاهدين، الأمر الذي اكتشفه الطليان وأدى إلى القبض عليهما وإعدامهما

شنقاً،[114] وفي هذا الصدد كتب غراتسياني: **المدعو سليمان سعيد العرفي رئيس الدوريات المحلية لوحظ عنه أن له اتصالات خفية بعمر المختار في وادي الباكور...**[115] كذلك يجب ألا ننسى الفارس الأغر خليفة بن عسكر من رجالات نالوت الأبطال الذي حاول جاهداً أن يسلط فوهة بندقيته على العدو ولكن ظفرت أيادي الغدر به وعلقته على أعوادها شهيدا.

مجندون يصبحون جيشاً للتحرير ...

بالإضافة إلى الآلاف المؤلفة التي جندتها إيطاليا طوعاً وقهراً للعمل في صفوف جيوشها فكانوا يمدون إخوانهم المجاهدين بالاستخبارات عن تحركات القوات الإيطالية ويزودونهم بما

---

[114] راجع: العوكلي، عبد العالي بو عجيلة – المجاهد الشهيد سليمان سعيد العرفي – أخبار بنغازي بتاريخ 30 أكتوبر 2003م.

[115] غراتسياني، رودولفو – برقة الهادئة (ترجمة إبراهيم بن عامر) صـ 127.

يحتاجون من مؤن وذخيرة،[116] وخير دليل على ذلك الشهيد البطل عيسى الوكواك العرفي من مدينة المرج الذي عمل في جيش الطليان أكثر من سنة ولكنه قرر الانتقام منهم، فعمد إلى آمره الإيطالي، فصاح عليه بالاسم من الشباك، فأطل سيئ الحظ برأسه من الشباك، ففجر الوكواك رأسه برصاصة. وانطلق صوب الدور حيث رحب به المجاهدون لينضم إلى صفوفهم كرجل المهمات الخاصة والصعبة حتى أنه حاول ما يقرب من 12 مرة اغتيال السفاح غراتسياني انتقاماً لما اقترفته يديه الدمويتين من إعدام شيخ الشهداء عمر المختار.[117]

ومن الحوادث التي تجلت فيها وطنية هؤلاء المجندين هو ما حدث لعائلة النمر في قبيلة العواقير عندما نزل عليهم المجاهدان الكبيران سعد الله النمر مصحوباً بالشيخ عبد الحميد العبار، فاكبر آل النمر نزلهما وذبحوا وأولما لهما بما لذ وطاب ولكن عين

---

[116] البرغثي، يوسف سالم – عمر المختار (تحرير د. عقيل البربار)، صـ 115.

[117] نجم، فرج عبد العزيز – أبطال وملاحم.

الغدر من بني الجلدة كانت ترصد كرم الأهالي وهم يستقبلون أبطالهم فذهب أحد ضعفاء الأنفس من أبناء المنطقة ليخبر الطليان طامعاً في عطية من المستعمر يقتات بها ليومه. وإذا بالطليان يحاصرون نجع آل النمر بعدما غادرا البطلان، ويجمعون آل النمر الذين بلغ عدد من كان في النجع منهم أكثر من أربعين ذكر ويصلونهم بحمم بنادقهم ليمحوا أثرهم بما فيهم ابنين للشيخ سعد الله النمر حتى قيل أن الشيخ عمر المختار في إحدى مفاوضاته مع الطليان استنكر ذلك على محاوريه المستعمرين فعلتهم الشنيعة بأناس عزل أكرموا ضيوفهم كما جرت العادة بين الليبيين. وكان ذلك "البصاص" وكله خزي وعار واقفاً بينما هؤلاء الأبرياء يرشون بنار الطليان وكان من بين المجندين الطليان ليبياً من أبناء بادية برقة يدعى بوصامد عينه السعيطي من منطقة جردينة عز عليه ما حل بأهله وأن كان في المعسكر المخالف لهم، ولكنها "بيتية" الرجل كما يقول أهلنا، وحمية الشرف والغيرة التي امتلاءت بها أحشاءه وأن

كست ملابس الجندية الإيطالية جسده، فسل بندقيته أمام الملأ وصوبها نحو ذلك الظالم لنفسه ولأهله وفرغ ما فيها راديا ً إياه قتيل لدهشة الأهالي والطليان معاً، وبذلك الصنيع يكون قد سلك في دم إخوانه الشهداء وان كان في صف عدوهم ومن قتلهم.

أما جيش التحرير الذي عُرف بالقوة العربية الليبية – نواة الجيش الليبي – التي شاركت الإنجليز تحت اسم LAF قتال قوات المحور (ألمانيا وإيطاليا) في الحرب العالمية الثانية، فقد كان معظم رجالها مجندين لدى الطليان، ولكنهم خذلوا الطليان عند سيدي براني فأسرهم الإنجليز ومن ثم انضموا إلى إخوانهم المرابطين بمصر ليكونوا قوة فاق عددها 11 ألف مقاتل استطاعت أن تكشف عورات الطليان والألمان في ليبيا ما مهد للإنجليز دحرهم على أرض الوطن وهذه بشهادة الإنجليز

أنفسهم،[118] وكانوا فرحين بما قاموا به على يد السيد شمس الدين السنوسي، أحد رجالات السنوسية، الذي دعاهم إلى التجند في صفوف الجيش السنوسي، فصفقوا على طريقة البدو فيما يعرف بـ "الكشك" واهتزجوا أمامه مكفرين عن تجندهم مع العدو:

جميع الذنب اللي درناه

سيدي شمس الدين محاه

إنقاذ القائمقام عصمان الشامي ...

نعود ونتصفح بعض الأمثلة القليلة التي تقدم بها كثير من الناس دفاعاً عن الشارف الغرياني ولكنها لم تدون لإهمال بعضنا جوانب كثيرة من محنة أجدادنا على يد إيطاليا الفاشية الغاشمة.

---

[118] العالم، عز الدين عبد السلام – تاريخ ليبيا السياسي والاجتماعي 1922-1948 ص 202-208.

وفي إحدى سفريات الشارف باشا إلى الجبل الأخضر وبالتحديد في مدينة شحات، وصل إليه المجاهد البطل القائمقام عصمان الشامي، وكان أحد خمسة قادة الجهاد فيما عُرف بهيئة الجبل بقيادة الشهيد الرمز عمر المختار وبعضوية كل من يوسف بورحيل وعبد الحميد العبار والفضيل بوعمر وعصمان الشامي نفسه، وبعد استشهاد كل من عمر المختار والفضيل بوعمر استمر القادة البقية بقيادة يوسف بورحيل، فاسماهم غراتسياني في مذكراته بـ "**الفرسان الثلاثة**" الذين رفضوا الانصياع وأصروا على القتال حتى استشهاد بورحيل وهجرة العبار، ولكن أُبتلي عصمان الشامي ووقع في الأسر في عين غزالة وبعد محاكمته تدخل الشارف باشا وتم إخلاء سبيله من قبل الحكومة فشرح الشامي ظروفه الصعبة التي ألمت به للباشا،[119] حيث زوجة عصمان الشامي الأولى، مكاتيب

---

[119] ذكر لي الأستاذ الباحث سالم الكبتي بان الشيخ الشارف الغرياني وجد القائمقام عصمان الشامي بعد وقوعه في الأسر قد حكمت عليه المحكمة الإيطالية بالإعدام ولكن بتدخل

الدرسي، وابنها محمد ووالدة زوجته الثانية، هوينة البرعصية، في معتقل العقيلة البشع، فعز ذلك على الباشا أن يرى هذا الفارس المغوار معوزاً، فبعد تدخل الشارف الباشا لدى السلطات الإيطالية اصطحب معه المجاهد عصمان الشامي معززاً مكرماً كما يستحق إلى بنغازي وأنزله في بيته، واعمل الشارف الباشا ما أوتي من نفوذ لصالح المجاهد القائمقام، فتم ترتيب إطلاق سراح المعتقلين من أهل بيته وتسهيل رجوع زوجته هوينة البرعصية وأبنها علي إلى أرض الوطن بعد غربة في مصر امتدت لسنين ولملم شملهم، وأقام جميعهم في كفالة وحماية الشارف باشا في منطقة البركة لمدة سنة كاملة.

الشارف باشا خُفف عليه الحكم ومن ثم كفله الشارف باشا ولعب دوراً في إخلاء سبيله ونقله إلى بنغازي واسترجاع أهله ولم شملهم.

فها هو ابن المجاهد البطل القائمقام عصمان الشامي[120] – الحاج علي – يخبرني شخصياً ما فعله الشيخ الشارف الغرياني فيقول:

بعدما أُخرج والدي الشيخ عصمان من المعتقل سنة 1933م لسوء صحته، وكان الجوع والحاجة في انتظاره، فأعطاه الشيخ الشارف الغرياني غرفة في مقدمة حوش في منطقة البركة في مدينة بنغازي تصلح أن تكون مخزناً أو حانوتاً، علماً بأن جل الناس مازالوا مشردين، وهذه المكرمة سيذكرها التاريخ للشارف الغرياني، ولم يبخل وجهاء سكان بنغازي من الحضر بالتشرف بمساعدة هذا الفارس المكسور

---

[120] أحد قادة الجهاد ومساعدي عمر المختار، اسماه غراتسياني في مذكراته مع يوسف بورحيل وعبد الحميد العبار بـ "**الفرسان الثلاثة**" الذين رفضوا الانصياع وأصروا على القتال حتى استشهاد بورحيل وهجرة العبار ولكن الشامي وقع في الأسر.

بما جادت به الأنفس، علماً بأن الرجل مراقب ومعروف عنه كرهه المستعمرين الطليان.[121]

ومن ثم تم الاتصال لرجوع هوينة البرعصية (أم الحاج علي) بواسطة من الشارف الغرياني عند السلطات الإيطالية وكانت حينها بالمهجر في مصر، وجُددَ الطلب للشيخ الشارف الغرياني بأن يرتب لهم سكناً يليق بالعائلة، وبالفعل استطاعت العائلة بمساعدته أن تتحصل على قطعة أرض بمنطقة البركة فشيدوا بيتاً في شارع الرملي لضم شمل العائلة واستأنفوا حياتهم بهدوء.

ولم تكن عائلة المجاهد عصمان الشامي وحدها التي امتدت إليها يد الشيخ الشارف البيضاء بل وصلت عائلة الشهيدين من آل الحداد. فقد أعدمت إيطاليا كل من الأب محمد احصين الحداد وابنه سنة 1930م، وهو من أعيان بنغازي ومن

---

[121] راجع: نجم، فرج عبد العزيز، مقالة "**صفحات من تاريخ العلاقات الجهادية بين فلسطين و ليبيا**"، القدس العربي بتاريخ 10 يناير 2002م (لندن).

تجارها المعروفين، وكان ممن قدم ونسق لإمدادات المؤن والمعونة للمجاهدين. وقد شُردت نساء آل الحداد وعيالهم (أخت الشهيد وزوجتاه وبناته الخمسة وابنه الوحيد بعد إعدام الابن الأكبر) من بيتهم الذي كان مضافة للمجاهدين،[122] واغتصبت أموالهم وطردوا من بيتهم، فما كان من الشارف باشا إلا أن دبر لهم بيتاً في منطقة البركة ببنغازي لتستقر العائلة وتقتات من حياكة تلك الحرائر كما ورد في العريضة التي قدمتها عائلة آل الحداد في السنوات الأخيرة للقيادة الليبية ليخففوا عنهم نكبات الدهر ويردوا عنهم مظلوميتهم.[123]

---

[122] راجع: الورفلي، انتصار – المجاهد الشهيد محمد احصين الحداد – أخبار بنغازي بتاريخ 6 أكتوبر 1998م.

[123] نسخة من عريضة قدمتها عائلة آل الحداد في 1996م تشتكي فيها ما وصل حالهم إليه ويطلبون ترجيع ممتلكاتهم التي اغتصبت منهم بغير حق، ويشكون بان لهم من الأراضي التي اغتصبت و استغلت بغير حق، منها بيتهم الذي أصبح مصرف الصحاري بالبركة إلى يوم الناس هذا، و من أراضيهم ما بني عليها الآن سوقاً كبيراً و معهد الخدمة الاجتماعية و نقابة المهندسين .... و وصل الحال بأحد المواطنين سامحه الله أن يبني على تلك الأرض المغتصبة جامعاً تقام فيه الصلوات الخمس ..... ؟

وساطات الشارف الغرياني ...

فقد أرغم الشيخ الشارف الغرياني في أكثر من مقام على التدخل، ومبعث ذلك إما واجبه الشرعي كرجل درس الشرع وعمل مستشاراً شرعياً أو رأفة بما حل بأبناء ملته وإلحاح الحكومة وكثير من المجاهدين أنفسهم لإيجاد مخرج من المأزق الذي وقع فيه الجميع بمن فيهم الطليان الذين لم يستطيعوا التغلب على النهج الجهادي، كما أن المجاهدين كانوا يعانون من عدم تحقيق أي إنجاز مادي ملموس من أجل ذلك المنهج.

فها هو الشيخ الشارف يلتقي كبار المجاهدين في برقة البيضاء أمثال الشيخ عبد السلام الكزة (العواقير) ومحمد الحرنة (المغاربة) وبوشديق مازق[124] (البراعصة) ويجمعهم بممثل الحكومة الإيطالية تيروتسي في يوليو 1927م لإيجاد حل لتلك المصائب التي بدأت تفتك بالبلاد والعباد، ولكن رفض الشيخ عبد السلام ذلك المخطط الذي طرحه الطليان لغرض الفصل

---

[124] عم السيد حسين مازق والي برقة ورئيس وزراء ليبيا الأسبق.

بين الجبل الأخضر وبرقة البيضاء وزرع الشقاق بينهم.[125]وأعاد الكرة كل من بوشديق وعلي باشا العبيدي ومحمد بوفارس ورافع فركاش[126] وهم من الأعيان الذين رجوا أن ينضم الشارف الغرياني إليهم للتوسط بين الشيخ عمر المختار والطليان لوضع حد لتدهور الأحوال، فحاول الشارف باشا التخلص واعتذر، ولكن ألح عليه صديقه الشيخ علي باشا العبيدي حالفاً له (بالطلاق) على أن يقبل، وبالفعل تم ذلك في مفاوضات سيدي ارحومة التي باءت بالفشل.[127]

---

[125]البرغثي، يوسف سالم – المعتقلات الفاشستية بليبيا صـ 37-38.

[126]من قبيلة المسامير المجاهدة التي دفعت اغلى الأثمان من اجل الوطن، وفي مقدمتهم القائد الشهيد يوسف بورحيل والمجاهد عبد القادر فركاش، شقيق رافع فركاش، الذي أُلقيت عائلته في معتقل العقيلة الوحشي فقتلت زوجته وبناته الأربع وشقيقتهما، هذا وقد لاقى رافع فركاش من ويلات ما لاقه كثير من المظلومين إبان الاستعمار حيث نفي إلى إيطاليا لثلاث سنوات وذاق فيها المر مع فقدان الأهل وأبناء العمومة والأحبة.

راجع: بوسنينه ، طاهر علي — المجاهد عبد القادر بدر مرتضى فركاش – أخبار بنغازي بتاريخ 11 نوفمبر 2004م.

[127]الأشهب، محمد الطيب بن إدريس – عمر المختار صـ 106-107.

ودلالة هذه الأسماء العملاقة في تعاملها مع الشارف باشا وتقبل وساطته دليل مادي على رجاحة عقل الشارف باشا والثقة به – وإلا لنبذه المجاهدون ورفضوا التعامل معه. وهو لم ينس أصدقاءه كما فعل مع علي باشا العبيدي عندما قبض الطليان عليه وكادوا أن يفتكوا به لولا تدخل الشارف وما له من ثقل في إنقاذ علي باشا، وبحوزتي وثيقة يشكر فيها علي باشا العبيدي الشارف الغرياني لما قام به من أجل إنقاذ حياته، ويرجع تاريخ هذه الرسالة إلى سنة 1942م حيث يذكر علي باشا العبيدي فيها جميل ومعروف الشارف باشا عليه، وأنه ذكر فضائله للأمير إدريس نفسه..[128]

البرغثي، يوسف سالم – حركة المقاومة الوطنية بالجبل الأخضر (1932-1927م) ص 78.

[128] رسالة من علي باشا العبيدي (أحد مشايخ قبيلة العبيدات وقادة المجاهدين) إلى الشارف باشا الغرياني تاريخ 17 أغسطس 1942م.

المنفيون يستنجدون بالشارف باشا ...

أيقن المنفيون الليبيون في الجزر النائية الإيطالية أنه لا مفر لهم من حياة البؤس والنكد في تلك الجزر القاتلة إلا اللجوء إلى أهل الفضل والنجدة، فقد كتب أولئك المبتلون رسالة إلى الشارف باشا الغرياني يطلبون فيه التدخل لفك أسرهم لما يعرفونه فيه من إخلاص للوطن وبنيه، وكان من بين أولئك الأسرى كل من يوسف لنقي، الرجل الغني عن التعريف، وصالح المهدوي الذي كان عميداً لبلدية بنغازي، وبين من قاتل في جليانة حتى قيل إن امرأة كانت "تقذر" (تغني وتهتزج) وتقول:

شيال أعلام الدين حيا الله يا بوالمهدوي

وتقصد صالح المهدوي، أما الآخر فكان حسين باشا كويري، الذي كان قائداً لجيش أركان شريف مكة في الحجاز الذي قاد الثورة ضد الأتراك فيما عرف بالثورة العربية الكبرى عام

1916م، وقد بعثا ووقعا الرسالة المهدوي وكويري نيابة عن المعتقلين بجزيرة اوستكه عام 1925م، وصلت الرسالة إلى الشارف الغرياني، واشتكيا فيها من ضيم وظلم العملاء والخونة للشارف الغرياني، وشكرا الباشا على نجدته لهما مما رماهما به الدهر على يد أولئك الساقطين من أبناء جلدتنا، وهذه دلالة صريحة على أن الشارف الغرياني رجل تمتع بوطنية ودين افتقدهما الكثير ممن تعامل مع الطليان في تلك الظروف حالكة السواد فكتب:

بعد إهداء السلام الممحور بآيات الثناء والعطر والشكر اللائق بكم جميعاً نحيطكم علماً بأنه حضر لنا مشرفكم الكريم رداً على استرحامنا المتقدم إلى اللجنة باسم سعادتكم فتلوناه على جميع الرفقاء الذي هللوا له وكبروا شكراً لله تعالى الذي جعل في الأمة رجالاً من ذوي القلوب الطاهرة والوجدان المنزهة من أدران الأغراض الساقطة فلبو دعوتنا

وعقدو الخناصر على نجدتنا مما رمانا به الدهر على يد أولئك الساقطين من أبناء جلدتنا الذين هم لا يراعون في الله إلاً ولا ذمة.

فشكرناكم وشكرنا لعموم اللجنة تلك التلبية وتلكم المساعي التي فتحتم بها جميعاً أحسن قيام والتي سيبقى لجميعكم بها ذكراً خالدا ...[129]

مشافع الشارف الغرياني ...

بعض من شفعات الجليلة من أجل أبناء الوطن التي سيذكرها التاريخ بالحمد والشكر للشارف باشا ما قام به مع الفتى فرج حويو الورفلي وهو لم يتجاوز الخامسة عشر بعد عندما حكم

---

[129] راجع: كتاب سلسلة الوثائق رقم 19 بعنوان "**من رسائل المنفيين**" رسالة رقم 49، ص 163-164.

وللتعرف على شخص حسين كويري وسيرته العسكرية راجع الوثائق الإيطالية المجموعة 26، المجلد الأول من منشورات مركز جهاد الليبيين لعام 2001م.

عليه الطليان بالإعدام، فما كان من الوالد المكلوم إلا الاتجاه لبيت الشارف باشا في يئس ومحاولة أخيرة لإنقاذ ولده، وبالفعل لم يقصر الشارف باشا وتدخل بكل ما أوتي من نفوذ وسلطان لينقذ ذاك الصبي اليافع من حبل المشنقة، وحتى قبيل موته، رحمه الله، كان يقول للناس على يدي الشارف الغرياني كتب لي عمر آخر. والأمر نفسه تكرر مع شهاب الأشهب من حكم الإعدام الذي صدر في حقه.

كما توسط لدى الحكومة الإيطالية للإفراج عن كل من عمران فركاش المسماري، وعائلة السنوسي الشهب وإخوته من معتقل الدمار والفناء في العقيلة ..إلخ، وساعد الكثير من العائلات التي كانت تعاني كعائلة بوخطاب المنفي وغيرها.

الشارف الغرياني والرفق بالحيوان ...

ومشافع الشارف باشا لم تقتصر فقط على البشر، ولكنها امتدت بكل حن وود إلى الحيوان، وخاصة الإبل التي يجلها

الليبي لاسيما الشارف باشا الذي عُرف عنه كسبه لهذه الحيوانات التي لا يخلو من بيت ليبي منها .. إلا إذا كان غير قادرٍ على امتلاكها أو عاجزاً عن تموينها.

فقد كان لرجل من قبيلة الزواوي من عائلة بنانه، ويدعى حماد الغزاي، قطيع من الإبل التي حشرتها الحكومة الإيطالية داخل المعتقلات مع إبل غيره من القبائل التي أُعدت خصيصاً للحيوانات، وسيجتها بالأسلاك الشائكة حتى تكون بمنأى عن ما يسمونه بهتاناً وزوراً بالفلاقة أي المجاهدين، بغية حجب خيرات هذه الإبل وسائر الحيوانات المعتقلة عن المجاهدين، وكانت محروسة بصورة دورية بجندهم الذين يسرحون الإبل في الصباح حتى بعد وقت العصر، ومن ثم يعودوا بها صاغرة إلى معتقلها على غير عادة رعاتها البدو.

فحز في نفس الغزاي حال ما وصلت إليه الإبل من رثاء وآسى، فقد أصابها الجرب وهزلت، فأراد من سلطات الاحتلال أن تسمح له بأن يتكفل هو شخصياً بتسريحها ورعايتها لأنها

"تبهدلت وتسخسخت"، على حد تعبيره، وفقدت كثير من وزنها وبريقها، فرفضت السلطات سؤله، فما كان عليه إلا أن يطرق باب أهل الخير والوفاء وفي مقدمتهم كان الشيخ عبد الله الغرياني شقيق الشارف باشا، وكان حينها مكلفاً في مديرية مراده، فكتب الغزاي إليه بقصيدة يلتمس فيها المساعدة من عبد الله الغرياني راجياً إياه أن يكتب إلى أخيه الشارف باشا في بنغازي ليتدخل ويطلق سراح إبله المعتقلة في قصيدة رائعة يقول فيها:

طالبين فضل الله اغاثة من طلب

لايمينك يا حضرة المدير

نريدوك تطلب الاذن لاجاك الطلب

من غير الحطية ما نبو تحدير

راحت عليها ليل طيبة الحسب

عز البوادي وين شح المير

تمت اتقول انعاش منهشمه حطب

وما عاش فيها عقاب ذخير

....

راحن أيام العز وأيام الطرب

وأيام العفا والحلب والتسفير

واليوم في كدر في زر في شر في جرب

عليها كتب مولاي هكي يسير

وبها الحال تمت كل ساعة في طلب

لا خير فيها ولا بلاها خير

سلطانة المكسوب غاية من كسب

هانت علينا غصب للتنحير

....

أنت ان غثتها يامير يا شيخ العرب

يا لابس المساح عل الشخشير

يغيثك بغيث الله بودين منتصب

ويجيرك الله من النار والتقهير

ننقانه نزروا فيك قدامك صنب

ولكن نبوك ادير له تدبير

كلم الشارف وأنت كرعيك في القبب

ولو كان للوالي اركب في طير

....

أنت شيوخنا من قبل عل الجود والغلب

الله لا يبدلكم بحكم الغير

حتى اللي يتخطا قبل ومعاكم اذهب

لا شر درتوها ونياكم خير

....

طلبت من على ميت وعل الحي مرتقب

يسهل عليكم كل شيء عسير

ويحسن اختامكم بصلاتي على المحب

عز الخواتم ساعة التقطير

فما أن وصلت الرسالة للشارف باشا حتى تدخل على الفور وجاءت رسالة عاجلة للمسؤولين في مراده ليطلق سراح إبل الغزاي وإبل غيره التي كانت في ذلك المعتقل.[130]

وفي مراده أيضاً تدخل الشارف الغرياني لصالح نجمة بوصفيطة المجبري، زوجة مبارك السوسي، كما نقل عنها، حين أمر أخيه عبد الله الغرياني بأن يأخذ جميع أفراد أسرتها اللذين تمكنا من إطلاق سراحهم من المعتقل وان وأن يقوم برعايتهم على أحسن وجه.

الشكر والعرفان للشارف ...

ومن بين الرسائل العديدة التي بين يدينا وتشير وتنوه إلى دور الشارف باشا الإيجابي في خدمة الناس اخترت رسالة شكر وتقدير من المجاهد عون محمد سوف المحمودي بعثها من منفاه

---

[130]شريط سمعي للشاعر الشارف شريف الحرنة المعروف بأبي الإجدابي يقرأ فيها بعض من شعره إلى جانب شعراء آخرين.

في الإسكندرية للشيخ الشارف سنة 1936م ... وعون غني عن التعريف هو وأبوه الشيخ المجاهد محمد سوف المحمودي وجده البطل الأسطوري غومة المحمودي، **وباختصار شديد فأن عون سوف هو من أصدق المجاهدين جهاداً وأنظفهم يداً، ومن الشجعان المعدودين في الجهاد ضد الطليان،**[131] يقول عون في رسالته: **تلقيت من خادمكم فتح الله علي معيوف نبذة عن تاريخكم المجيد وصورة فوتوغرافية لسعادتكم فخامرني السرور والطرب ودفعني لأخذها إلى إحدى المصورين بالإسكندرية، فالتقطها بالآلة وحفظتها في برواز تذكاراً لسعادتكم ... ولا شك بأن هذه الهيبة الثمينة حصل لنا بوجودها في منزلنا الشرف الرفيع ... أدامكم المولى ذخراً**

---

[131] القشاط، محمد سعيد – معارك الدفاع عن الجبل الغربي، ص 320.

للبلاد والعباد وكلل الله مساعيكم بالنجاح ... أحد المفتخرين بالانتساب لسعادتكم ..[132]

والملاحظ أثناء تقليبي كثيراً من المراجع و الوثائق أن أغلب من أرخ لتلك الحقبة لم يتعرض للشيخ الشارف بسوء، بل من باب التأدب معه كانوا يردفون اسمه بالباشا، وبعضهم أبطن تفاهماً بما قام به هو وبقية الأعيان لحفظ البلاد وإنقاذ العباد. فها هو الشيخ العلامة محمد الأخضر العيساوي – وهو من علماء الزنتان – يسرد قصة سقوط الجغبوب ومحاولة إفلات شيخها من الطليان فكتب:

إن شيخ زاوية الجغبوب حسين السنوسي المراكشي قرر الرحيل إلى سيوه تاركاً زاويته التي كانت تزحف عليها جيوش البغي من

---

[132] رسالة من عون محمد سوف المحمودي (أحد مشايخ قبيلة المحاميد وقادة المجاهدين في طرابلس) إلى الشارف باشا الغرياني تاريخ 29 مايو 1936م.

الطليان، وإذا بطيران العدو يكتشفه، ثم يقبض على الشيخ ويؤتى به مكبلاً، فيعز على الشارف الغرياني أن يرى صديقه هكذا، حيث كانت بينهما معرفة قديمة، فتوسط الشارف باشا لدى الوالي فعفى عنه وتركه حراً ثم سعى الشارف باشا حال وصوله بنغازي لإعادته إلى عمله الأول، وفعلاً رجع إلى عمله في مشيخة زاوية الجغبوب.[133]

الشارف يتمسك بدينه ولغته ...

الشارف الغرياني كان دائماً معتزاً بدينه ولغته فلم يتحدث الإيطالية ولم يحبذ غيره من أبناء الوطن التحدث بها فكان دائماً متمسكاً بزيه وهيئته الإسلامية كمل يبدو في الصور، ولم يقبل الهجرة إلى إيطاليا على الرغم من عرضها عليه، ولم تعامله القوات الإنجليزية والليبية معاملة الخونة بعد هزيمة إيطاليا وتحرير

---

[133] العيساوي، محمد الأخضر – رفع الستار عما جاء في كتاب عمر المختار صـ 72.

ليبيا كما فعلت مع بعض الشخصيات الليبية التي كانت محسوبة على إيطاليا وأساءت إلى ليبيا فاعتقلتهم بريطانيا،[134] هذا ولم يصلنا بأن الشيخ الشارف الغرياني قد اغتصب أملاك أحد أو حتى أساء إلى أحد ما، بالعكس كان مقداماً في الخير مراعياً في ذلك دائماً الخالق صاحب الحق ومعطي الثواب، حتى أن المحكمة الإيطالية غرمت المواطن علي بوزيد الكوافي بغرامة مالية باهظة لم يستطع سدادها، وهُدد بمصادرة كل أملاكه، فتوجه إلى الشارف الغرياني الذي عُرف بعدم رده للسائل، وقام الشارف بالواجب، كما كان متوقع منه، وإن كان لا يملك كل المبلغ، ولكنها الشهامة التي جعلته يستدين من شفيق خزام، صاحب مصنع النسيج الشهير في بنغازي، وعندما طلب منه علي بوزيد الكوافي ورقة أو سند تثبت مديونيته وحقه له، كما هي المكاتبة في الشرع فيما يخص الديون والأمور المالية، قال له

---

[134] من أمثال عاكف امسيك وباندته سيئة الصيت، إذ يذكر البعض أن البريطانيين القوا به في غياهب السجون بعد اندحار إيطاليا فقضى نحبه فيها.

الشارف الغرياني: لقد قبضت من الله تعالى الأجر والثواب كاملين إن شاء الله .. فلا دين عليك ولا دين بيننا.

ولم يُعرف عنه يوماً ما عدائه أو الانتقاص من التيار الجهادي بقيادة الشهيد عمر المختار بل العكس هو الصحيح، فقد كان يكن كل الاحترام للشيخ الشهيد حتى عندما خدعه الطليان – كما كان حالهم وأسلوبهم دائماً– وأخبروه كذباً بأن الشيخ عمر المختار أراد مقابلته وهو مكبل في سجن سيدي خريبيش قبيل تنفيذ حكم الإعدام بيومين، فكان ذلك بمثابة لقاء الوداع، مفعماً بالحسرة على ما حل بالوطن ورموزه، وختم الشيخ الشارف روايته ببيتين من الشعر مدحاً في زميل طفولته.

لقاء الوداع بين سيدي عمر والشارف ...

وها هي القصة مقتضبة كذاك اللقاء، كما نقلها الأستاذ الأشهب في كتابه "**عمر المختار**" عن لقاء الشيخ الشارف الغرياني بالشهيد عمر المختار: [135]

... في أمسية اليوم الرابع عشر من سبتمبر 1931م قام الكمندتور رينسي (السكرتير العام لحكومة برقة) بزيارة للشارف باشا الغرياني بصحبة الترجمان فرناري، و طلب منه أن يذهب إلى السجن لمقابلة عمر المختار حسب طلب الأخير ... وأمرت [يقول الشارف باشا] الترجمان فرناري أن يترك مقعده للسيد عمر المختار فجلس وخيم علينا سكوت رهيب وكنت أنتظر أن يقول شيئاً ولكنه لم يتفوه بكلمة واحدة، وأردت أن أبتدئ الكلام فقلت هذا المثل الشعبي مخاطباً السيد عمر: "الحاصلة سقيمة والصقر ما يتخبل" وما كاد يسمع هذه العبارة حتى رفع رأسه ...

[135] الأشهب، محمد الطيب بن إدريس – عمر المختار ص 165-171.

وقال: الحمد لله الذي لا يحمد سواه، وسكت هنيهة ثم أردف قائلاً: رب هب لي من لدنك رحمة و هيئ لنا من أمرنا رشدا ... فقل لي ماذا تريد ؟ وهنا فقط أيقنت أنه لم يطلب مقابلتي ... وفهمت أن رينسي الكلب هو الذي دفعني إلى هذا الموقف المحزن ... وعدت إلى منزلي وأنا أشعر بشيء ثقيل في نفسي ما شعرت بمثله طيلة حياتي. وسئل الشارف باشا عن نوع الثياب التي كان يرتديها السيد عمر المختار ... أهي ثياب السجن؟ أم ثيابه التي وقع بها في الأسر ؟. وكان جواب الشارف باشا هو البيتين الآتيين مستشهداً بهما:

عليه ثياب لو تقاس جميعها

بفلسٍ لكان الفلس منهن أكثرا

وفيهن نفس لو تقاس ببعضها

نفوس الورى كانت أجل وأكبرا

وعندما تمعنت في هذه القصة وأردت استقراء دوافعها أو بالأحرى استجلاء الأسباب وراء جعل الشارف الغرياني دون غيره من أن يقابل عمر المختار على رغم من أن الاثنين لم يطلبا رؤية بعضهما، وهو وهْم الطليان الذين كانوا يأملون في الإيقاع بالشيخ عمر المختار في فخ الاستجداء والاستخذاء وطلب الحياة لنفسه في لحظة من لحظات العمر ونكبات الدهر وخذلانه .. ولكن هيهات .. فالشيخ كان عصياً بقدر ما كان فطناً لما يحدث حوله فرفض التماس العفو من جلاديه أو حتى الإذعان لهم وإيقاف الثورة بل أكد على سعيرها، ولم يرغب في الخوض مع الشارف الغرياني في ذلك حتى – كما أراه – توريط الشارف باشا في شيء قد يحسب على الشيخ عمر أو ضد الشيخ الشارف الغرياني.

وللعلم أن الشارف الغرياني كان مدركاً بأن عيون الطليان تلاحقه، لأننا نعرف من استنطاق الوثائق وكتابات الطليان انهم لا يثقون في العرب، وكانوا يبحثون عن الذرائع لإنزال أقصى العقوبات ممن تعاون مع الأهالي الرافضين لحكم إيطاليا ناهيك عن المجاهدين، ولعل ما حدث مع الشهيد سليمان سعيد العرفي خير دليل على عدم توفر الثقة بين الفريقين. وهذه في نظري كانت محاولة يائسة بائسة للإيقاع بالشارف باشا في فخ التآمر مع عمر المختار ضد حكمهم والاستدلال بها على عدم ولائه، ولكن الشارف باشا كان على فطنة أيضاً بما يحاك لهما عندما أراد تحييد المترجم، واستخدم المثل الشعبي البدوي "**الحاصلة سقيمة والصقر ما يتخبل**" الذي استصعب على الطليان وأعوانهم فك شفرته أو تفسيره فيما يستخدم ضد الشارف باشا لإدانته التي كان يسعى إليها عدد لا باس منهم، وفي مقدمة من كان الشارف الغرياني على خلاف مع هو

غراتسياني نفسه الذي لم ينشرح صدر أحدهما للآخر أو يسترح لبعضهما.

التواصل الأسري بين العائلتين ...

وعلى الرغم من هذا كله فقد استمر الترابط الأسري بين الشهيد عمر المختار والشارف باشا، وإن اختلفا في أسلوب التعامل مع المستعمر، ومازال التواصل قائماً إلى يومنا هذا، فمازال كل من الحاج محمد ابن الشهيد عمر المختار والحاج السنوسي ابن الشارف باشا يحترم بعضهما الآخر ويتبادلان الزيارة على الرغم من اعتلال صحتيهما حتى يومنا هذا في بنغازي فقد زار مؤخراً الحاج محمد المختار الحاج السنوسي معزياً إياه (أكتوبر 2004م) في وفاة حرمه الحاجة امباركة.

ويقال إن الشارف الغرياني ترك مذكرات سجل فيها كثيراً من خفايا تاريخ أجدادنا، على الرغم من عدم علم عائلته بذلك، ويذكر المؤرخ السنوسي الكبير محمد الطيب الأشهب أنه كان

في الكثير من رسائله التي وجهها إلى حاكم ليبيا العام منتقداً ما اتخذته حكومة برقة الإيطالية من وسائل قد يكون لها الأثر في اتساع شقة الخلاف بدلاً من العمل على تقارب وجهات النظر، وبما أن الشارف الغرياني كان يُرى ويُعتقد أنه الشخصية الوحيدة في برقة من بين الشخصيات التي ترجع إليها إيطاليا، وكان بالبو حاكماً لليبيا كلها يحترم الشارف الغرياني ويثمن آرائه، ولكن في نفس الوقت كان الباشا على خلاف دائم مع غراتسياني، فلم يرتضي لنفسه أن يكون ملحقاً في وفد مباحثات الطليان فحسب، أو يكون رأيه في هذه المواقف ثانوياً، أو يدعى لحضور هذه الاجتماعات مستمعاً فقط ... وعندما تفشل إيطاليا في مساعيها أو تحل بالطليان ضائقة تُشْتَم شماتة الباشا بالطليان.[136]

ومن الشخصيات التي كانت قريبة جداً من الشارف باشا وعملا سوياً في مجلس بلدية بنغازي عندما عين الشارف باشا

[136] الأشهب، محمد الطيب بن إدريس – عمر المختار صـ 101-102.

عميداً فخرياً[137] لها هو صاحب جريدة بريد برقة، عمر فخري المحيشي، الجريدة التي وصفت الشهيد عمر المختار بأنه زعيم العصاة والمتمردين،[138] فيذكر الشيخ المؤرخ الطاهر أحمد الزاوي:

إن المحيشي كان يحرص كل الحرص على أن يُفهم مواطنيه أنه مكره على نشر ما كان يشرف على نشره في مجلة ليبيا . وبين هذه المتناقضات كان عمر المحيشي يحيى حياة قلقة، إذا فارقها الحذر لحظة تعرضت حياته للخطر .. لم يخف على الطليان ما كان يبديه عمر المحيشي من التحايل على نشر بعض رغباته، وما كان يبديه من جهد في التستر عليها بحيله الصحفية .. إلى

---

[137] عينته السلطات الإيطالية عميداً فخرياً لمدينة بنغازي بعضوية كل من عمر فخري المحيشي والدكتور علي نور الدين العنيزي من المسلمين الليبيين في وسط أغلبية إيطالية، ومع هذا كله قابل الأهالي هذا الخبر بشيء من الارتياح والسرور، وفي تلك الآونة بنت البلدية فندق وفندق برنيتشي (فندق الجزيرة الآن) وبنك روما (في ميدان البلدية) وصندوق التوفير بشارع عمر المختار وبعض المباني في ضواحي بنغازي والبركة وسيدي حسين.

[138] الشلماني، محمد عبد السلام – شيء عن بعض رجال عمر المختار صـ 53.

جانب ما كانت المجلة تقدمه لهم من خدمات كان لها أثر كبير في تغطية ما يبعث الشك في نفوس الطليان من كتابات عمر المحيشي. وقد ذكر غراتسياني في مذكراته: إن الصحفي عمر المحيشي أنقذ من حبل المشنقة عدة شخصيات كان يشهد بجانبهم. ومن لباقة عمر المحيشي، أنه كان ينشر تكذيباً لأشياء واقعية عملها الإيطاليون، والشعب يعلم ذلك؛ ليفهم الشعب أن الإيطاليين يكذبون أنفسهم بأنفسهم. وكان ينشر منشورات المجاهدين بحجة أنه يرد عليها، وله من وراء ذلك مقصد حسن، وهو إطلاع الناس على هذه المنشورات، وأن المجاهدين ما زالوا في نشاطهم لحماية الوطن وقتال العدو. وهكذا كان عمر المحيشي يكتب إلى جانبه ما اعتاد قراؤه أن يفهموا منه إخلاصه لقومه ولوطنه. وقد ألبسه الله ثوبا من هذه النية الصالحة؛ فكان محل التقدير من مواطنيه، وكانوا يلتمسون له من الأعذار ما يجعله في محل الاضطرار إلى نشر ما يمليه المستعمرون، كما أن مواطنيه يعتقدون أنه لو كان له من الأمر شيء لاتخذ من ليبيا

المصورة منبراً، يدعو منه إلى قتال أعداء الوطن وإجلائهم عنه، ولتخلص من ذلك الكبت الذي كان يعانيه، والسيطرة القاتلة التي كان يعيش تحتها.[139]

ويؤكد الدكتور وهبي البوري،[140] وهو أيضاً من الشخصيات المخضرمة المرموقة في عالم السياسة والأدب، على أن الشارف باشا: **أثناء إقامته في بنغازي كان مُعيناً للمواطنين، وكان يعمل على فك كل ضائقة لكل من يقصده، وكانت داره مفتوحة لكل محتاج وطالب مصلحة.**

السيد صفي الدين وعائلة الشارف ...

[139] الزاوي، الطاهر أحمد – أعلام ليبيا (راجع: عمر فخري المحيشي).

[140] من مواليد 1916م عمل رئيساً للديوان الأميري/الملكي ووزيراً للخارجية والبترول ومندوباً لليبيا في الأمم المتحدة إبان الحقبة الملكية، وهو قاص وأديب وباحث في التاريخ.

وللعلم علمت من ابن السيد صفي الدين، السيد أمين،[141] أن والده عندما كان يأتي في زياراته القليلة إلى الوطن من منفاه، فكان من الناس القلائل الذين حرص على زيارتهم هم آل الشارف الغرياني متمثلاً في ابنه السنوسي من حين إلى آخر، وكان يرى لزاماً تقديم فروض الاحترام والامتنان إلى عائلة الشارف باشا الغرياني حتى بعد مماته، وإلى كتابة هذه السطور لا نعرف لماذا أصر السيد صفي على زيارة ابن الشارف الغرياني احتراماً وإجلالاً له على الرغم من صغر سنه ومقامه مقارنة معه، فيا ترى هل امتدت يدا الشارف باشا البيضاء إلى السيد صفي الدين في السر .. غير مستبعد أبدا.

عائلة الشارف باشا ...

[141] في لقاء ببيته الكائن بحي الفويهات ببنغازي بتاريخ 8 أغسطس 2006م.

ترك الشارف باشا خلفه أربع بنات وولد وحيد من زوجات مختلفات فقد اقترن في بادئ الأمر بـ:

1) صالحة عبد السلام محمد بودرباله الكميشي التي أنجبت له سالمة، ولكن بعد ثلاثة اشهر من ولادة ابنتها توفيت.

تزوج الشيخ إبراهيم الزوام، أحد أعيان واحة زلة، سالمة، وأنجبت له محمد إبراهيم الزوام وثلاثة بنات.

2) فاطمة الزوي وأنجبت حواء التي تزوجها السيد عبد الله بوحميد الغرياني وأنجبت له سعيد وخديجة وصالحة.

3) زينب السودانية ولم تنجب له.

4) زينب القبائلية ولم تنجب له.

5) رقية المبروك الزغيد ولم تنجب له .

6) صالحة حمدو القرعاني خلفت بنتين توأم توفيا بعد تسعة اشهر.

7) مباركة بوحميد الغرياني (تزوج شقيقها عبد الله بوحميد حواء بنت الشارف الغرياني)، وأنجبت مباركة كل من فاطمة وعائشة

وآمنة، وولده الوحيد الذي أسماه السنوسي .. حباً وتبركاً بالسنوسية .. الذي كان بإمكانه أن يبعثه ليدرس بمدارس إيطاليا حتى يصل معارج السمو والرقي، ولكنه أقعده في بيته بعدما أتم دراسته الابتدائية في المدارس الإيطالية، لأن مواصلة الدراسة يشترط فيها التجنس بالجنسية الإيطالية لمن أراد الاستمرار فيها، ولشدة التزام الشارف باشا بالإسلام رفض ذلك وعين لابنه، وأبناء عمومته كالإخوة عبد السلام وحسين وصالح أبناء المهدي الغرياني وبعض الجيران كمحمد حسين الهدار وعبد السلام بورويص ومحمد بوبكر سعود والطاهر محمد النعاس ومحمد ابن المجاهد القائمقام عصمان الشامي، شيخين هما الفقيه حسين العبدي (مغربي الأصل) والفقيه السنوسي الغندور المجبري يحفظا الصبية القرآن ويؤدبوهم في بيته بعيداً عن إيطاليا وبهارجها كما فعل معه آباؤه في رحاب السنوسية ووفاءً ومحبة للسنوسية.

ولم ينجو أقارب الشارف باشا من المعتقل، فقد اعتقلت عائلة مختار الغرياني، أبناء عم الباشا، في منطقة جنزور الشرقية ومعهم عائلتي ديهوم الدرسي وبالخادم المنفي ورحلوا جميعهم إلى معتقل سلوق، وكان من بينهم شقيقة الشارف الغرياني الوحيدة، حليمة زوجة التواتي الغرياني، فنصحها ابن عمها حمد السنوسي بأن تطلب من الإيطاليين بأن يسمحوا لها بالذهاب إلى شقيقها الشارف باشا، وبواسطة أحد المسئولين الليبيين في سلوق تم توصيلها لأخيها، وهناك أخرجت له رسالة من المقبوض عليهم وهم في رهن المعتقل وبمجرد علمه بمحنة القوم تدخل لدى الحكومة الإيطالية وتعهد بضمانهم، وبالفعل تم الإفراج عنهم ونقلهم إلى منطقة قمينس، وكانت الحالة في أسوأ ما تكون حيث المجاعة والأمراض الفتاكة والشر في انتظارهم ولكنه تكفل بتموينهم الذي كان يبعثه إليهم أسبوعياً من بنغازي.

ولاء الشارف للطريقة ...

كثير من الناس أُلبس عليهم بأن الشارف الغرياني قد أصبح جزء من المنظومة الإيطالية خاصة بعد تعيينه قراند كردوني في 3 نوفمبر 1932م كما نشرت في جريدة الرقيب العتيد الصادرة في طرابلس، من قبل أميليو ديبونو، باسم ملك إيطاليا امانويل الثالث، ومن ثم عميداً فخرياً لبلدية بنغازي في عهد الحاكم الإيطالي مارشال الجو بالبو عام 1934م كما نشر في ذات الجريدة سالفة الذكر،[142] ولكن لم يعرفوا أن هذه المراتب ساعدته في خدمة بني قومه كما رأينا، ولكن أيضاً سمحت له بأن يستمر في عمله الدعوي حتى يفوت الفرصة على المحتل من استغلال ضعف الناس وبعدهم على دينهم لتمسيحهم، ولكن هيهات فشلوا فشلاً ذريعاً، ولم يتمكنوا إلا من إقناع إنساناً واحداً سمى نفسه بـ بطرس البرعصي، الذي أصبح مادة للتندر

---

[142] جريدة الرقيب العتيد "شعارها: جريدة سياسية أدبية علمية جامعة تبحث في كل شيء" (العدد 762) بتاريخ 9 أغسطس 1934م.

والتفكه ومبعثاً للسخرية، اضطر بعد هزيمة إيطاليا أن يهجر ليبيا ليستقر به المقام في إيطاليا وتنقطع أخباره.[143]

وقد روى الشيخ محمود دهيميش أن الشارف باشا كان يقيم الذكرى السنوية فيما يعرف عند أهلنا بـ "الحول" للسيد الإمام محمد بن علي السنوسي (طيب الله ثراه) في جامع عصمان بوسط بنغازي جهاراً نهاراً، ويشاركه غالباً حفيد الإمام، السيد محمد الرضا، وكذلك عمر باشا الكيخيا، ولم يخشوا بفعلهم هذا الحكومة الإيطالية.

كما قام بإنقاذ أغلب المقتنيات التي كانت بزاوية الجغبوب عندما احتلتها، وزحفت جحافل الغزاة على الدواخل، فأحضرها الشارف باشا من جالو، فكان من بينها نفائس الكتب والمخطوطات وغطاء ضريح السيد الإمام محمد بن علي السنوسي، وكرسي ابنه السيد المهدي، وهذه الأشياء فيما بعد

---

[143] بدوي، عبد الرحمن – سيرة حياتي ص 110.

سلمها ابن الشارف الغرياني، السنوسي الشارف الغرياني، لمبعوث الملك إدريس الشيخ عبد الحميد العبار عام 1956م، وقد بعث لهم القصر الملكي رسالة شكر وتقدير لذلك قام بإمضائها ومهرها سكرتير الملك الخاص السيد أبو القاسم الغماري.

وهذه المودة والوفاء والإخلاص كانت متبادلة، لأن السادة السنوسية كانوا يكنون له كل التقدير والاحترام وفي مقدمتهم السيد أحمد الشريف الذي كان يراسله ويثق به وينوطه ببعض الأعمال كما ورد في إحدى رسائل السيد أحمد إلى الشارف باشا التي ابتدأها السيد بالقول:

... إنه من عبد ربه ومملوك أستاذه نائب الخليفة الأعظم ووزيره أحمد الشريف السنوسي ... إلى الفاضل الأجل

الكامل النبيل المحترم سعادة ولدنا الشارف باشا الغرياني[144] حفظه الله آمين ... السلام عليكم و رحمة الله وبركاته ومرضاته ...

فالموجب السؤال عن المرضية أحوالكم، نرجوا الله أنكم بخير، وإن سألتم عنا وكافة من بمعييتنا ولله الحمد في سوابغ نعمه وتتابع جوده وكرمه. أرجوه تعالى إلا تزالوا كذلك أنه جدير لما هنالك، هذا ومنا أتم السلام إلى جميع الإخوان والمحبين ومن عندنا كذلك السلام. [145]

---

[144]وللعلم رتبة باشا من عظام الرتب وقد منحها له السيد أحمد الشريف بأمر من الحكومة العثمانية.

[145]نص رسالة السيد أحمد الشريف إلى الشارف باشا الغرياني بتاريخ 8 أغسطس 1918م.

راجع: هويدي، مصطفى علي – الحركة الوطنية في شرق ليبيا خلال الحرب العالمية الأولى (ملحق رقم 32) صـ 280.

شعر الوجهاء تمجيداً في الشارف ...

لقد دبج كثير من الشعراء قصائد المديح والشكر والعرفان في الشارف باشا كثير منها لم يرى النور ولم ينشر على صفحات الجرائد، بل حتى بعضها لم يصل المقصود .. ولكن سأبسط المجال لقصيدتين لوجيهين عُرف الأول بعلمه الشرعي وجهاده ضد المحتل، والآخر بعلمه ونزاهته ووطنيته.

فالأول هو الشيخ سعيد المسعودي،[146] من أعيان طرابلس، أزهري التعليم، عمل إماماً بكتائب المدفعية التركية تعرف حينها بـ "الطوبجية"، من أوائل من تصدى للزحف الإيطالي فقاتل في

---

[146]هو الشيخ سعيد ابن الشيخ الشهيد أحمد محمد المسعودي ولد عام 1869م في بيت علم وفضل من بين عائلات طرابلس العريقة، سافر إلى الأزهر الشريف عام 1905م وبعدما تم تعليمه جلس للتدريس في الأزهر، وورث عن أبيه الطريقة العيساوية ناهض الاستعمارين الإيطالي ومن ثم الانتداب البريطاني توفي عام 1957م.
نقلاً عن شريط سمعي من إذاعة صوت الأمل بتاريخ 3 ديسمبر 2006م يتناول شخصيات من التاريخ الليبي من إعداد وتقديم مصطفى علي.

معركتي الشط وبوමليانة، لازم سليمان باشا الباروني، كان أديباً وشاعراً فصيحاً ذكى بقصائده الحماسية همم المجاهدين إبان الحرب، ووزع قصائده بعد ما حطت الحرب أوزارها كمناشير مناهضة للاستعمار، فحبسوه، وقيل حكم عليه بالإعدام، فتدخل بعض الأعيان، وقد فعلها الشارف باشا من قبل حين أنقذ العربي الهوني من حكم الإعدام عندما توسط له عند السلطات ملتمساً له العفو، ولن استغرب إذ ما كان الشارف الغرياني من بين هؤلاء الذين توسطوا للشيخ سعيد إذا ما صحت الرواية، لأن ما قاله فيه من شعر دليل على سابق مودة ومعرفة، واقتبس من هذه القصيدة التي بعث بها في هيئة تهنئة بتقلده شرف عمادة بلدية بنغازي:

وافاه مرفوع الجناب جزيلا

عرف الرجال مكانة وقبيلا

وافي السيادة حقها وأجلها

بميامن تستوجب التفضيلا

عهدته للشرف العميد عناية

ورأته في اعبئه ماهولا

"ملك" أنال الفضل منه سماحة

بنوا له كيما يكون منيلا

وجد السري الشارف الباشا له

كفؤاً وقواماً به وكفيلا

غر المآثر لا يني في جده

يوماً ولا في المكرمات كليلا

ما كان للإصلاح إلا موئلا

في حسن رأي لا تراه مميلا

أعظم به من سيد من ماجد

مغرى بحب الخير فيه حفيلا

إلى أن يقول :

باهت بمثلك برقة وسراتها

من كل شهم بالوفاء مثيلا

عظمت بكم آمالها فصرفتمو

جهداً بسعي حقق التأميلا

فرحت بمنصبك الجليل واظهرت

لمقامك التعظيم والتبجيلا

بك يا عميد الفخر طالت واعتلت

عزاً تباهى بالمفاخر طولا

لازلت أهديك الثناء لأن لي

حباً لكم لا يقبل التحويلا[147]

---

[147] نشرت هذه القصيدة في جريدة الرقيب العتيد (عدد 771) بتاريخ 29 يناير عام 1935م.

وفي قصيدة أخرى للشيخ المسعودي نشرتها جريدة العدل تحت عنوان تباهت بكم شأناً طرابلس:

يا أيها الشارف الباشا الذي فخرت
به بنو برقة شيباً وشباناً
قدست في طيب أصل بل وفي خلق
يا خير ما سدت أفراداً وأعياناً
وقد تباهت بكم شأناً طرابلس
مذ كان مسقط الرأس غريانا
فأنت أهل لما قد نلت من شرف
إذا ما أقمت له في المجد ايؤانا
أحسنت في سعيك المشكور منتهجاً
مناهج الخير أسراراً وإعلانا

أما الشيخ عبد الجواد الفريطيس، من المعلمين الأوائل، وأحد وجهاء درنة وأعلامها، أصبح من رجالات العهد الملكي تربع على عرش الجامعة الليبية عندما أصبح عميداً لها،[148] تقلد عدد من الوظائف العامة الكبيرة منها إدارة التعليم في برقة، كان له تأثير كبير في توعية الشباب بتاريخ ليبيا، وتنشئة الأجيال حسب ما ذكره تلميذه الشاعر رجب الماجري،[149] فيبدو أنه كانت له علاقة حميمة للغاية مع الشارف الغرياني حين بعث له برسالة وذيلها بقصيدة غاية في الروعة (بتاريخ 11 نوفمبر 1929م)، صدرها بقوله: وبعد فإليك يا صاحب النجدة ووليد الشرف وسليل النبوة، أرفع حاجتي وأوجه آمالي وحاشا أن تخيب آمال وجهها صاحبها إليكم يأهل بيت رسول الله .. ويقول فيها:

---

[148] من خريجي الأزهر كان ثاني رئيس ليبي للجامعة الليبية من 1958 إلى 1961م بعد محمود البشتي (من مدينة الزاوية) الذي استلمها من العراقي مجيد خدوري عام 1956م.

[149] المفتي، محمد – سهاري درنة (التاريخ الاجتماعي للمدينة)، صـ 137-139.

أيحوم حول من التجأ لكم أذى

أو يشتكي ضيماً وأنتم سادته

حاشا يرد من انتمى لجنابكم

يا آل أحمد أو تسر شوامته

لكم السيادة من ألست بر بكم

ولكم نطاق العز دارت هالته

هل ثم باب للنبي سواكم

من غيركم من ذي الورى ريحانته

تباً لنفس لا تقر بفضلكم

يامنجد اللهفان ضاقت ساحته

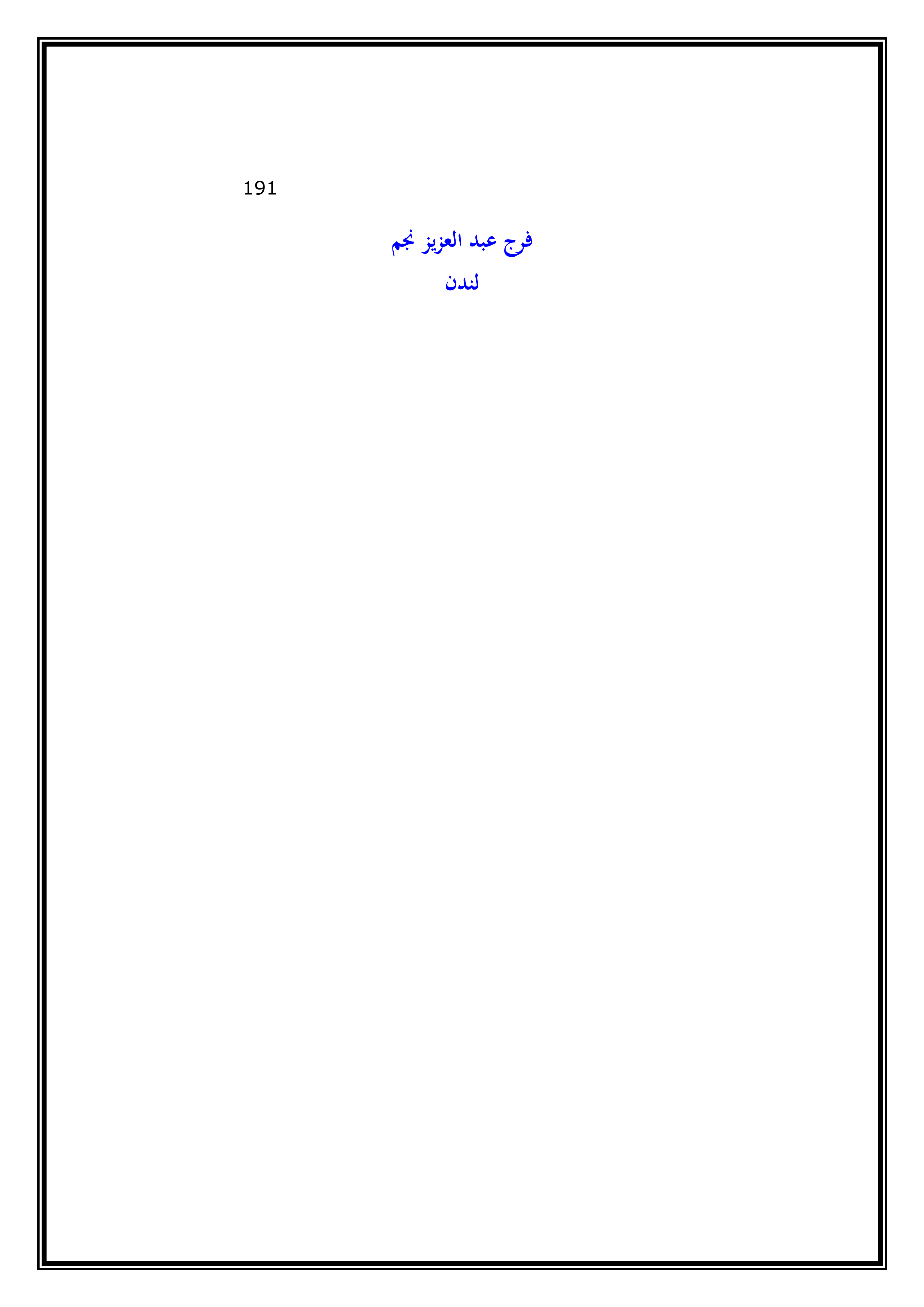
فالزم رحاب الشارف ابن محمد

ما أمه رابح وعيقت حاجته

والختام مسك ...

وبعد هذا كله .. لقد أثبتت كل الدلائل والحجج (فاق عددها المائة) التي وصلتنا من روايات شفوية، ووثائق، ومراسلات، وشعر وصور من أشراف وعلية القوم .. بدوهم وحضرهم .. من شرق البلاد وغربها وجنوبها .. مجاهدون كانوا أو صناع الدولة الليبية سواء كانوا من أقطاب الحركة السنوسية، أو مشايخ القبائل أو عمد البلد أو حتى عائلة الشهيد الرمز عمر المختار نفسها بأن الشارف باشا الغرياني كان رجلاً نزيهاً .. تقياً .. ربانياً .. خيراً لم يؤذى أحداً .. ولم يتسبب في أذى أحداً .. بل كان نبراساً لكل ملهوف يبحث عن نجدة، فلم يقصر في حق أحد، ولم يخذل أحد قصده، عمل على فك كل ضائقة لكل من قصده، وكانت داره مفتوحة لكل محتاج وطالب مصلحة، وكل ما قيل في حقه من همس، وغمز، ووخز، قد خدمه لتجلية صورته وإظهارها للملأ حتى يتبين لنا قدر وجميل صنع هذا الرجل ...

رحم الله الشارف باشا الغرياني رحمة واسعة.



فرج عبد العزيز نجم

لندن